

د . محمد الجوادي

وشائج الفكر والسلطة

دراسة فى الإنسان والسياسة







هذا الكتاب

هذه مجموعة من الفصول المتنوعة التى كتبت على مدى عشر سنوات وقد تناولنا فيها العلاقة بين السياسة والفكر من خلال تجسدها فى أداء بعض الشخصيات البارزة فى المجالين وذلك من دون أن نفرض على رؤاهم أى قدر من التنظير أو التأطير ومن دون أن نفسر السلوك على نحو مخالف للدوافع التى أدت إليه انتصارا لفكرة أو نفيا لتوجه.

كتبنا هذه الفصول من منطلق الحب، وعبرنا بها عن وجدان مولع بالأداء المشرف ومولع أيضًا بالفكر المشرق، لم نحمل الأمور فيها إلا ما تحتمله فى أبصار المحبين وأفئدة العارفين، ولم ننقل إلى حياة من كتبنا عنهم شيئا يخرج عن هذه الحياة وعن المسار الذى اختطته وارتضته حتى إن فرضته عليها الدنيا المتقلبة التى تغدر حينا وتعذر أحيانا.

وشائج الفكر والسلطة

دراسة فى الإنسان والسياسة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م



٩٧ شارع المنتزه ـ ميدان ألف مسكن ـ مصر الجديدة
تليفون وفاكس : ٢٦٣٧٣٢٧٢ ـ ٢٦٣٧٤٢٧٣
٠١٠٠١٦٣٣٧١٨
Email: <shoroukintl@hotmail.com>
http://shoroukintl.com

د. محمد الجوادى

وشائج الفكر والسلطة

دراسة فى الإنسان والسياسة



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الجوادى، محمد.
وشائج الفكر والسلطة/ محمد الجوادى.
ط١ ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤م.
٩٦ص؛ ٢٤سم.
تدمك 978-977-701-138-9
١ ـ السياسة ـ مقالات ومحاضرات.
٢ ـ السياسة فى الأدب العربى.
أ ـ العنوان ٣٢٠,٠٤

رقم الإيداع ٢٥٨٥٨/ ٢٠١٤م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 138 - 9

إهـــداء

إلى الصديقين الكريمين

الدكتـور عبد السلام شريف

الدكتـور رجـب عبـد الســـلام

المحتويات

الباب الأول
فى أبراج الفكر والسياسة

الباب الثانى
فى أبراج السلطة والسياسة

الباب الثالث
فى أبراج التاريخ والسياسة

■ ■ ■

هذا الكتاب

هذه مجموعة من الفصول المتنوعة التى كتبت على مدى عشر سنوات وقد تناولنا فيها العلاقة بين السياسة والفكر من خلال تجسدها فى أداء بعض الشخصيات البارزة فى المجالين وذلك من دون أن نفرض على رؤاهم أى قدر من التنظير أو التأطير ومن دون أن نفسر السلوك على نحو مخالف للدوافع التى أدت إليه انتصارا لفكرة أو نفيا لتوجه.

كتبنا هذه الفصول من منطلق الحب، وعبرنا بها عن وجدان مولع بالأداء المشرف ومولع أيضًا بالفكر المشرق، لم نحمل الأمور فيها إلا ما تحتمله فى أبصار المحبين وأفئدة العارفين، ولم ننقل إلى حياة من كتبنا عنهم شيئا يخرج عن هذه الحياة وعن المسار الذى اختطته وارتضته حتى إن فرضته عليها الدنيا المتقلبة التى تغدر حينا وتعذر أحيانا.

بدأنا هذه الفصول بدراستين عن الأستاذ أنيس منصور، وهما دراستان احتفاليتان لكنهما اعتبرتا بمثابة مرجع لتقديمه وفهمه وقد نشرت ثانيهما عقب وفاته فى ٢٠١١، أما أولاهما فكانت عند فوزه بجائزة مبارك ، واعقبنا هاتين بتأبينين مرجعيين لكل من الدكتور عبدالصبور شاهين والمهدى المنجرة ملخصين حقيقة دورهما فى الفكر العربى المعاصر، ثم بتأبينات تكريمية للأساتذة محمود عبدالمنعم مراد ومحمد عودة وعبدالحميد يونس وإسماعيل النقيب وناصر الأنصارى، وفى الباب الثانى عرضنا تأبينا موسعا لضياء الدين داود استعرضنا فيه حياته كلها بتقاطعاتها وأزماتها وأثرها ثم التفتنا إلى تقديم لمحات عن ثلاثة رؤساء للبرلمان المصرى صوفى أبوطالب ورفعت المحجوب وأحد فتحى سرور، لكننا فيها قبل هؤلاء الساسة الأربعة الذين مارسوا السياسة فى ميادينها العامة تحدثنا عن أسامة الباز، مقربين صومعته من الفهم فى حاولة جادة لإيفائه حقه فى تاريخ العقود الأربعة الأخيرة، كما قدمنا مقالا موجزا عن أحمد ماهر.

وفى الباب الثالث قدمنا أربعة مقالات عن الدكتورين عبد العظيم رمضان ويونان لبيب رزق.

والله - سبحانه وتعالى - أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسى أنى لا أخلو من الرياء فى كل ما أفعل.

والله - سبحانه وتعالى - أسأل أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله - سبحانه وتعالى - أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

والله - سبحانه وتعالى - أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم وتعب ووصب وقلق، وأن يهبنى الشفاء والصحة والعافية، وأن يقيلنى من مرضى، وأن يعفو عنى، وأن يغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر. وأن يحسن ختامى، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال القبول وهو - جلّ جلاله - الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله - سبحانه وتعالى ـ وحده الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادى

الباب الأول

فى أبراج الفكر والسياسة

الفصل الأول

أنيس منصور

(١)

يرحم الله الكاتب الكبير أنيس منصور.

لم يحظ كاتب عربى معاصر بتصاعد قيمة التقدير الذى حصل عليه مثلما حظى أنيس منصور. تجلى هذا فى التزايد والتضاعف والتراكم اللانهائى فى معجبيه على مر الأيام، كما تبلور فى التقدير الأكاديمى والعربى والنقدى لأعماله، بل وتكرس هذا المعنى فى جوائز الدولة، وقد منح الجائزة التشجيعية فى أول عهدها والتقديرية بعدها بعشرين عاما، ثم جائزة مبارك بعدها بعشرين عاما أخرى وكان حصوله على هذه الجوائز الثلاث تتويجا للقيم الأدبية الرفيعة.

فأنيس منصور هو المبدع الذى لم تقف إبداعاته عند حدود أى نمط من أنماط الكتابة الأدبية، ومع هذا فقد تسنم الذروة السامقة فى كل الموضوعات التى تناولها، والأنماط التى مارسها.

وهو الفيلسوف الذى مارس الفلسفة فى كل ما كتب وقدم، وكان بمثابة رسول الفلسفة فى الأدب العربى الحديث والمعاصر.

وهو المفكر الذى فتح بجسارة شديدة كثيرا من الأبواب المغلقة وسيطر باقتدار بالغ على كل زوايا الفكر المتميزة التى قدر له أن يوجدها وينشئها وينميها فى التفكير المعاصر.

(٢)

وهو نمط نادر من الكتاب والأدباء والنوادر فى تاريخ الآداب العالمية الذين تتاح لهم فرصة الشهرة المبكرة ولكنهم يؤخرون ـ عن عمد ـ انتشارهم من أجل التجويد، ثم إذا هم بعد

الوصول إلى أقصى درجات الشهرة والتجويد لا يبخلون على قرائهم ولا على معاصريهم بإنتاج غزير كثيف لا يكف عن الارتقاء والتفوق على كل ما سبقه فإذا هم من قمة إلى قمة، وإذا هم يجمعون ويحرزون ويحصدون ويسجلون تفوقا فى الكم والكيف يصعب أن يفكر أحد فى اللحاق به.

وفى حالة أنيس منصور فإنه يجمع بالإضافة إلى هذا إعجاب الأذكياء والعامة والمتذاكين والمتبسطين، ويجمع بين تقدير الأكاديميين وطلاب المدارس، ويجتمع على تقدير موهبته كل الناس شبابا وشيبة ورجالا ونساء وأطفالا ولكنه يضحى بإعجاب أنصاف المثقفين وأنصاف المفكرين.

وإذا هو فى كل ما يمارس وينشئ من زاد فكرى عميق المحتوى ينسج الخطوط من حرير الوطنية الحقة التى لا تختلط بأى قدر من أقدار الشوفونية، ولا تصطبغ بأى نسبة من الأيديولوجية، إنما هى وطنية راقية متزنة عاقلة مبصرة حفية بكل تقدير وإعجاب، ولهذا فإن صاحبها يتنازل طوعا عن افتتان أنصاف الوطنيين وأنصاف السياسيين.

(٣)

وأنيس منصور هو النموذج المتفرد والبارز للكاتب الذكى الفيلسوف الذى سعى إلى اصطفائه حاكم عظيم وزعيم متفرد، لا لكى يكتب له أو يملى عليه، ولا لكى ينقل إليه أو عنه، وإنما سعى إليه ليقدح زناد فكره بفكره، وليجدد من خلال اللقاء به شرارات الإبداع فى السياسة وممارستها وفى التاريخ وصنعه.

وقد كان من حسن حظ الرئيس السادات أن وجد فى عصره هذا الفيلسوف العبقرى، حتى وإن كان تاريخ عصر السادات لا يزال يتشوق ويتطلع إلى أن يتناوله قلم أنيس منصور على نحو أو آخر.

(٤)

وأنيس منصور هو النموذج التاريخى للعبقرى الذى يولد بلمحات العبقرية ويتاح له من

التعليم ما يؤجج العبقرية، ثم يتيح هو لنفسه من استكمال التعليم ما يكفل للعبقرية المتأججة أن تتوهج، ثم لا يفتأ العبقرى يعنى بعبقريته إلى الحد الذى يجعله آناء الليل وأطراف النهار يضيف إليها ويصقلها ويشذبها ويراجعها ويركزها ويكثفها، والعبقرية فى كل هذا تستجيب له استجابات مضاعفة، تحفظ عليها جوهرها ومظهرها، وتجدد لذات العبقرية الطاقة الكفيلة بالحفاظ على الذات، وتبذل العبقرية من ذاتها كل الطاقة الكفيلة بتوليد الطاقة، وإذا حياة أنيس منصور كحياة الكون تسطع شمسها فتبخر من مياه البحار سحابا يعود إلى البحار أمطارا بعد أن يكون قد أحيا النفوس وطهرها وأنعشها، بل وأضاف إلى نفسه ومجده أيضًا.

(٥)

أنيس منصور هو السهل المطلق الذى لا سبيل إلى تصعيبه أو تعقيده، ولا إلى تحويره أو تدويره، يقرأه كل الناس فيحرزون أقدارا متساوية من الفهم دون أن تحتاج نصوصه إلى كهنة أو مفسرين أو شراح، لأنه لا يكتب إلا إذا وصل إلى كبد الحقيقة وقلب الحقيقة وباطن الحقيقة حتى لو كانت الحقيقة هى الحيرة نفسها.

وقد مكنه علمه الفلسفى الغزير وتفوقه المعلوماتى الساحق أن يدرك منذ مرحلة مبكرة أن نهاية البحث الجاد قد تكون سؤالا كما أنها قد تكون جوابا، ولهذا نجا أنيس منصور فى كل ما كتب وألف وأبدع وسجل وقرر من التعالم والتصنع والتمعل والتعمل والافتعال والتذاكى والادعاء والتحذلق والتفذلك، وجاءت آراؤه وأقواله على الدوام نموذجا للحكمة الخالصة حتى لو كانت الحكمة هى البحث عن الحكمة فحسب.

(٦)

أنيس منصور قبس من نور الخالق - جل فى علاه -، منحه للعرب وللفكر العربى فى وقت كانا أحوج ما يكونان إلى مثله تجردا للحقيقة، وبحثا عن الحق، وقد مثلت كتاباته فى بعض الموضوعات نورا هدى إلى الطريق الذى كانت الأغلبية تجهله، وفى موضوعات أخرى مثلت كتاباته ضميرا متيقظا فى مواجهة خطايا الجهالة والعمالة والتعتيم والانحياز وتفضيل القوالب

الجاهزة، وحين مارس الصحافة حقق فيها بفلسفته واطلاعه وجهده عددا لا يستهان به من الخبطات الصحفية، فلما تفرغ للمقال كانت المعجزة أنه حقق أيضًا من خلال المقال خبطات صحفية وفكرية نقلها العالم كله عنه!

(٧)

وأنيس منصور هو المزيج ذو الكود السرى الأمثل بين رباعيات العلم والفن والأدب والفلسفة، وهو السبيكة النفيسة النادرة فى تناسق نسبها بين كل هذه المكونات الأربعة التى يندر أن تجتمع بأقدار مثالية فى شخص واحد أو قلم واحد، وكما أن سبيكته عبقرية فى جوهرها فإنها عبقرية فى قشرتها الخارجية بما انصهر عليها من مقادير محسوبة من بلاغة وفصاحة وإشراق ودقة ونعومة..

وأنيس منصور هو النموذج المعبر عن الفن الراقى الذى يدرك عن فهم أصيل مبادئ الصنعة وآفاق التجديد، وهو فى الوقت ذاته النموذج البارز للأدب الذى يرتقى بالمعرفة ويوجهها فى اتجاهات لم يكن لصاحبها عهد بها قبل أن يقرأ أنيس منصور.

(٨)

وقد أتاح له دأبه وذكاؤه وجده واجتهاده طرازا متفردا فى الشخصية العبقرية التى نجت وتبرأت من كل مركبات النقص، ومع هذا فقد احتفظت بالأقدار المثلى من مسوغات العظمة الإنسانية ومقومات الكمال البشرى.

وحسب أنيس منصور تقديرا أنى لم أر عنصرا مشتركا فى شخصيات كل الصحفيين الناجحين إلا عنصرا واحدا فقط، هو أنهم كانوا يحلمون بأن يكونوا أنيس منصور.

وحسبه تقديرا مرة أخرى أن أيا منهم لم يتصور نفسه قادرا على أن يحقق كل ما حققه، وإنما كان طموح كل منهم محددا ببعض ما حقق..

فما بالنا بهذا التفكير الذى كانوا يحلمون به منذ ثلاثين عاما، بينما ظل الرجل يضيف إلى هرمه طوال هذه السنوات؟

(٩)

ويندر أن تجد فى الأدب العربى من نجح فى توظيف ألفاظ اللغة العربية على نحو ما وظفها أنيس منصور فى التعبير عن المعانى الدقيقة والمبتكرة على حد سواء، وعلى نفس النمط فعل بقواعد المنطق وبأصول التفكير الفلسفى وبحقائق علم النفس والصحة النفسية.

وقد مكنته دراساته المتصلة وقراءاته المتعمقة من أن يحقق بكل هذه الأدوات مستوى رفيعا ولا يضاهى من أسلوب متميز يحمل اسمه معه فى كل جملة من جمله، وهو أقصى بكثير مما يسعى إليه الأسلوبيون من نجاح، إذ إن غاية جهدهم أن يعرف الكاتب من فقرة، ولكن أنيس منصور وصل إلى ما هو أبعد من ذلك حيث يعرف فى كثير من الأحيان من سطر أو من جملة أو حتى من عبارة.

بل إن أنيس منصور نحت للمفاهيم الفلسفية المستحدثة والعصرية فى اللغة العربية عبارات بأكملها، ويسر للقارئ العربى الاطلاع على روح كثير من المدارس الفلسفية التى كانت ـ بدون جهده ـ ستبقى أشبه بالمدارس النقدية المعاصرة التى يعجز النقاد أنفسهم عن تبسيط مضمونها ومصطلحاتها، بل وأسمائها، للجمهور.

(١٠)

وقد نجا أنيس منصور من كل أنواع التكلف الخلقى والاجتماعى والأدبى والسياسى والفكرى، لكنه لم يحقق هذا النجاح إلا بعد سباحة متواصلة صارع فيها الأمواج من أجل الوصول إلى جوهر الحقيقة ولب الفكرة.

وتحمل أنيس منصور فى شموخ كثيرا من العبث الذى حاول أن ينال من مكانته فى وجدان أمته وأدبها وفكرها دون أدنى نجاح يذكر. وقد شاء له حظه ـ على سبيل المثال ـ أن ينجو من تسلط روح السلطة على نفسه ولو للحظة واحدة، لذلك نراه ونحس به دوما أكبر من كل سلطة ونفوذ، ولم يعرف عنه فى يوم من الأيام شوقه إلى سلطة، ولا إلى تسلط، بل لعله كان أحرص الناس على أن تنجو نفسه من هذه القيود المكبلة، كما احتفظت نفسه الصافية بأقدار لا نهائية من التواضع الحقيقى دون ادعاء.

وليس فى عالمنا الثقافى العربى كله من يتمتع بتواضع حقيقى كتواضعه الذى يظهر فى جلوسه بالساعات إلى كل النصوص الجديدة فى العالم كله، يقرأ ويحلل بعقلية ابن العشرين، ومع هذا فإن نفسه الأبية ترتفع بقدرها عند نفسها إلى حيث يبغى أن ترتفع وسط أمواج الأدعياء والمدعين والمشرئبين والمزيفين والمزورين والمتنفخين والمضخمين وذوى الضجيج.

(١١)

وليس سرًّا أن ترسُّخ مكانة أنيس منصور فى وجدان أمته كان بمثابة أبرز الدوافع التى استثارت جهودا محمومة بذلت فى الأعوام الأخيرة لمحاولة الارتفاع بالأقدار الفكرية لبعض الذين استلبوا الأموال ثمنا لتضحيتهم بشرف الكلمة والوطن وتملكوا بها الشركات الاحتكارية لدور النشر والتراث الوطنى الفنى، ورغم هذا فقد أثبتت التجربة أن أنيس منصور بقى وسيبقى على القمة التى لن يصل إلى سفحها من صوروا لأنفسهم أن بإمكانهم أن يستحوذوا بطريقة أو بأخرى على مكانة موازية لمكانته.

(١٢)

ومع أن لأنيس منصور كل الحق فى أن يشكو فى بعض الأحيان من موجات السطو على إنتاجه الفكرى فى كثير من البلدان العربية، وما يمثله هذا من إهدار لحقوقه المادية، إلا أنى أرى فى هذا أكبر وسام على صدره، لأن كل الذين سطوا ويسطون على هذا الإنتاج يعدون إنتاجه جزءا من تراث الإنسانية المباح للإنسانية كلها، ويصعب على هؤلاء التجار والناشرين أن يتصوروه كغيره من الأسماء التى تؤلف كتبا موسمية تباع لأجهزة دول معينة بعشرات الألوف دفعة واحدة من أجل قارئ واحد، وتدق لها عند صدورها طبول جوفاء، بينما يجتمع عشرات الألوف من القراء العرب على أن يقتطعوا من قوت يومهم ليقتنوا كتابا من كتب أنيس منصور يقرؤونه مرة بعد أخرى.

(١٣)

وربما يرى البعض أن يمتدحوه بقولهم: إنه أمة فى رجل، وربما يصور آخرون قدره بقولهم:

إنه تاريخ فى شخص، وربما تجسد طائفة ثالثة إنجازه على أنه بمثابة موسوعة القرن العشرين كله بما تبلور فى القرن العشرين من معارف وفلسفات القرون السابقة، بيد أن كل هذه الأوصاف وغيرها تتضاءل أمام حضور طاغ لم يسبقه إليه أديب أو كاتب، ومكانته فى الأدب القومى - اليوم - تفوق بلاشك مكانة سلفه العظيم والتر ليبمان فى الولايات المتحدة الأمريكية والمجتمعات المرتبطة بثقافتها.

بيد أن حضوره الطاغى غطى حتى على تقييم مجمل أعماله، لأنه أصبح فى مخيلة المعاصرين بمثابة المحيط الذى لا يمكن وصف حدوده ولا تصويرها إلا بالخروج من الكرة الأرضية، ويكفى الأحياء أنهم يجدونه محيطا بهم من أى ناحية اتجهوا إليها.

■ ■ ■

الفصل الثانى

أنيس منصور والسياسة

(١)

إذا أردنا أن نصف كتابات أنيس منصور السياسية باختصار لايتعدى خمسة سطور فإننا نقول: إن هذه الكتابات قد تفردت بحس إنسانى عال، وبروح فلسفية متمردة، وبوازع أخلاقى قوى، وبانتماء وطنى عميق، وبفهم تاريخى أصيل... ولم تجتمع هذه الملامح الخمسة فى كتابات غيره من معاصريه على هذا النحو الجميل الذى تآلفت به فى آثاره السياسية الرفيعة.

كان أنيس منصور قد بدأ الكتابة المنتظمة فى السياسة بعدما استقر له أسلوبه، وبعدما كسب جماهيرية عريضة لم يكسبها غيره من قبله، وهكذا لم يكن من الصعب عليه أن يكتب فى السياسة على نحو ما يريد، ولم يكن من اليسير عليه أن يضحى بالصورة الذهنية التى تكونت عن قلمه وميوله الفلسفية والسياسية والتاريخية والوطنية والخلقية.

وسرعان ما وجد أنيس منصور نفسه يكتب فى السياسة بأسلوب جديد يرفع من قدر الحقيقة حتى لو كان هذا الانحياز للحقيقة جالبًا للمتاعب والمشاكل، كان أنيس يعى فى تلك اللحظة أن الحقيقة لن تسعفه إذا هو خانها، وأن مصداقيته لا تحتمل الأكروبات المغلفة بالحديث عن الظروف الجغرافية والتاريخية وهى الأكروبات التى كان غيره يمارسها دليلا على البراعة فى الفهم أو التناول أو العرض أو الاستعراض على حين كان أنيس يدرك أن الناس قد أقرت ببراعته وأنه ليس فى حاجة إلى إثبات البراعة ولا إلى تضييع عمره فى إثبات الشىء ونقيضه كى يقال عنه: إنه كاتب كبير أو قدير، كما كان يدرك أن تصوير الهزيمة نصرًا والنصر هزيمة ليس من قبيل الأمانة ولا التاريخ ولا الوطنية ولا الأدب ولا التفلسف ولا السياسة وإنما هو نوع خطر من أنواع الإدمان للمخدرات الرخيصة المؤذية للوعى والصحة والوجدان والعقل على حد سواء.

(٢)

كان أنيس يدرك الدوافع الحقيقية للتاريخ وصناعته، وكان يعرف أن النفس البشرية هى العامل الأول فى صناعة التاريخ قبل ما قد تقول به حقائق الجغرافيا والتاريخ، وكان قادرًا على نحو لا يدانيه فيه أحد على تحليل هذه النفس وتحليل مواقفها وأثرها فى التاريخ والجغرافيا على حد سواء.

كان أنيس منصور يدرك أن الجماهير تعامل غيره معاملتها للمحامى الذى لا ينتظر منه إلا الانحياز للطرف الذى يعمل لحسابه بينما هى - أى الجماهير- تنتظر من أنيس الحكمة، لا الحقيقة فحسب.

(٣)

كان أنيس واعيا لقدرة قرائه على النقد بفضل ما أوتوا من قدرة على القراءة وبفضل ما دربهم عليه هو نفسه من القدرة على تقليب الوجوه المختلفة من أجل تغليب الحق على الزيف وتغليب الحقيقة على الباطل، وتغليب الزبد على الزبد، ولهذا فإن أنيس لم يكن مستعدًّا على أى نحو من الانحاء لأن يخون ثقافته، ولا المنطق الذى عاش من أجله، ولا المعرفة التى نشرها، ولا الفلسفة التى بشر بها.

ولم يكن أنيس يرى فى معاصريه الذين سبقوه إلى الكتابة السياسية قامات ينبغى الحذو على ما أنجزته أو ما حققته أو صورته أو رسمته، وإنما كان ينظر إلى هذا الاجتهاد المراهق الذى صور لكثيرين على أنه إعجاز نظرة الأستاذ الجديد إلى محاولات التلميذ القديم الساعية إلى التميز الفلسفى من دون صدق عقلى، والطامحة إلى الوجود الفلسفى من دون صدق نفسى..

ولهذا السبب كان أنيس لايبخل على قرائه من آن لآخر بالسخرية الممتعة من التناول العقيم لقضايا السياسة والوطن، وكان يغلف سخريته بكل ما يفقدها حدتها كما كان يغلفها بعد ذلك بكل ما يحفظ عليها جديتها وجدتها، ولهذا كان أنيس فى مهاجمة مخالفيه من كتاب السياسة يبدو وقورًا وغير متجهم فى الوقت الذى كان يبدو فيه متأملًا وغير متبرم.

(٤)

بدأ أنيس منصور حياته العامة قريبا من الصحافة المرتبطة بالسعديين فى جريدة الأساس وفى جريدة أخبار اليوم، وقدر له أن يعيش صالونات فكرية يومية تموج بها كان قادرًا على تقييمه ونقده، وكان يرى هؤلاء السعديين المهرة وقد تمكنوا من الحكم ونجحوا فى بعض ميادينه على الرغم من خروجهم على الوفد، ولهذا فإنه رزق القدرة على البحث عن الايجابيات بعيدًا عن الأغلبية التى يمثلها تيار الوفد الوطنى ونهره السياسى بطبعه الجارف، لكن أنيس لم يقع فيها استسهل أنداده الوقوع فيه، ولهذا فإنه لم يشغل باله بعداء الوفد ولا بالبحث عن مثالبه ولا بتأويل إيجابياته إلى سلبيات على نحو ما وقع الآخرون فى ذلك الفخ الذى جعلهم حتى الآن يعادون الوفد من ناحية، ويعادون الحركة الوطنية من ناحية ثانية، ويعادون التوجه الليبرالى من ناحية ثالثة..

(٥)

كان أنيس على النقيض يرى السعديين أقلية وصلت إلى الحكم وسرعان ما سوف تتركه لأن حقيقة التاريخ تقول بهذا، ولأن الحقيقة الفلسفية والوجودية تقول بهذا، ولهذا فإنه لم يعان عذابًا ولا حيرة حين عاد الوفد إلى الحكم فى ١٩٥٠ ولا حين قامت حركة الجيش فى ١٩٥٢ ولا حين تعرضت لما تعرضت فى ١٩٥٤.... كان أنيس يرى هذا كله فى إطار معرفى كفل له الفهم والتوقع كما كفل له المتعة العقلية على حين كان كل موقف من هذه التحولات يكلف الآخرين شططا فى التحول بأقلامهم وتوجهاتهم بل وبأرواحهم ونفوسهم.

كان أنيس يدرك مصائر الأمور وطبائع الأشياء وكان يبتسم حين يرى غيره يؤمل من المرآة أن تكون عدسة، ومن العدسة أن تكون مرآة، كما كان يسخر من كل الذين يعتقدون فى اشتراكية تتوجها رأسمالية الدولة، ومن كل الذين يعتقدون فى ديمقراطية تتوجها دكتاتورية الثورة، أو الذين يعتقدون فى شيوعية تتوجها وطنية الأهداف...

كان يعبر بكل ما أوتى من دهاء فى التعبير عن استحالة كل هذه الاوهام التى كان يتبناها ويدعو إليها كل الذين لم ينالوا حظه من الدراسة أو القراءة أو الفهم أو البحث أو الجدل ...

وإذا كان هناك كاتب سياسى نفعه علمه وإيمانه فإنه أنيس..

(٦)

وكانت ثقه أنيس منصور بما تعلمه وأدركه تجعله ينظر إلى مخالفيه الذين يرأسونه أو يسبقونه نظرة العارف بالحقيقة إلى المتعذب بالظنون، وهكذا تحول علمه الغزير إلى حصن حماه من أن يقع فريسة للإحباط الذى سيطر على غيره ممن لم يصلوا بعلمهم إلى ما وصل هو إليه .. وهكذا قدر له أن يعيش حقبة الناصرية وهو يتأمل مع أقل قدر من الألم، وأن يعيشها أيضًا وهو يفكر مع أقل قدر من المرارة.

لكنه فى الوقت ذاته كان يجيد التعبير عن الهجرة متخذا سبيله المزعوم فى الهجرة إلى الأرواح والأشباح وإلى الاطباق الطائرة والهابطة من السماء والعائدة إلى السماء وكان فى كل هذا مجيدًا على نحو ما كان يجيد السفر والحديث عن الرحلة.

وكان أنيس منصورحفيا إلى أبعد حدود الحفاوة بأن يبث فى العقل العربى، ويزرع فيه فكرة النقد والاختلاف حتى لو كان التعدد والاختلاف خيالا بعيدًا عن الواقع الذى كان يكرس الشمولية والنمطية على نحو كفيل بتدمير جزء كبير من إنسانية الإنسان.

(٧)

ولما جاءت حقبة السادات كان أنيس هاديا فى هدوء، وكان قادرًا بحكم قربه من الرئيس على أن يصوغ التعبير عن الفكر الساداتى فى مرحلة مهمة، لكنه آثر الصناعة على الصياغة، وشارك بكل معارفه فى صناعة فكر بهر العالم كله فى المبادرة وما أعقبها.

عرضت على أنيس منصور فى السبعينيات مناصب كثيرة آثر أن يرفضها جميعًا لأنه كان يرى نفسه فى نفسه ولم يكن يراها فى أعين الآخرين، ولهذا السبب فقد عاش أنيس منصور حتى لحظاته الأخيرة معنيا بأن تزداد قدراته وتفوقاته وإلماماته وإسهاماته، ولم يشغل نفسه بأن يدافع عن حقبة، ولا أن يصور شخصا على غير حقيقته.

(٨)

أذكر أن أحد أساتذتنا الكبار سألنى ذات مرة عما أعتقده سببا فى إهمال أنيس لما كان قادرًا عليه من تصوير زعيم عظيم تصويرًا يتفوق على تصوير غيره من الكتاب لزعيم عظيم آخر.

قلت بدون تردد: إن السبب أنه أنيس.

قال كاتبنا الكبير: لعلك أو كأنك تريد أن تقول: إن من واجب الزعيم تجاه نفسه أن يصنع الكاتب النجم الذى قد يرد له الجميل وألا ينتظر من النجم الحقيقى أن يكون محاميه أمام التاريخ..

قلت: لقد كان أنيس استثناء فى بابه، ولولا أنه عاش الفترة السابقة بشمولية آذت روحه وضيقت صدره ما أقبل على زعيم ولا على رئيس ولاكتفى من الدنيا بصداقة بعض الأمراء الأثرياء بالوراثة فحسب.

قال أستاذنا: لكنى أتحدث عما ترك أنيس وعما ترك الآخر من كتابات عن الزعيمين، ألا ترى عناية الآخر بتفاصيل كثيرة على مدى سنوات متصلة جاوزت الثلاثين، بينما لا يطرق أنيس هذا الميدان أبدًا تاركا زعيمه للذئاب والثعالب والنسور وأحيانا للكتاكيت.

قلت: هذا هو الفرق بين المثال الذى صنع التمثال مرة واحدة، وبين المرمم الذى يعود من آن لآخر إلى تمثال قديم ليرمم كثيرًا من الشروخ التى يظهرها مرور الزمان.

قال أستاذنا: لكن الآخرالمرمم يعنى بأن تظل الصورة المعجزة - بل المتألهة - متماسكة وطاغية فى حضورها على نحو ما رسمها هو.

قلت: هذه هى وظيفة الرفا الذى يرفو المتهالك من الثياب، بينما يرى أنيس نفسه عن حق صاحب خط الأزياء الأرفع قيمة.

قال أستاذنا: إن الآخر معنى بتماسك الصورة وحمايتها من الرياح، لكن أنيس يترك الرياح تعبث فى الشتاء بالأحكام وتعبث فى الصيف بلون الملامح.

قلت: إن أنيس لايجافى الطبيعة ولا يحارب طواحين الهواء، إنه يعرف قصة دون كيشوت ولا يحب أن يكرره.

(٩)

لم يمض على حديثنا هذا عام واحد إلا وأخرج أنيس منصور من مجلس الشورى المصرى فى تجديد لم تكن ظروفه تسمح بأن يفقد مجلس الشورى عضوية قامة كبيرة كقامة أنيس منصور، لكن المذهل أن ذلك المجلس أفقد عن عمد عضوية كل القامات الأخرى الموازية لأنيس

منصور فى ظل عبث غير واع اندفع إليه أقطاب لجنة السياسات دون أن تأتى اللجنة بتلاميذ لهؤلاء الذين أبعدتهم.

وعاد الكاتب الكبير فى لقاء تالٍ ليذكرنى بحوارنا السابق وليسألنى: هل كنت تتوقع مثل هذا التصرف حين سألتك وأجبتنى مستطردًا إلى موقفه من العصر الحاضر ومستقبله؟

وأجبته بأن قراء أنيس فى ازدياد على الرغم من كل الحروب الخفية الممولة التى وصلت إلى حد عشرات الملايين كى يتوازى غيره معه، وعلى الرغم من أن الحياة تقسو علينا كبشر كلما تقدم بنا الزمن.

قال أستاذنا الذى كان بحكم مواقعه العالية يعرف أكثر منى: هل تعتقد أن للحروب على أنيس علاقة بما يخطط له من أجل مستقبل مصر من تمديد أو توريث؟

قلت: إنى لا أعتقد فحسب، ولكنى أملك الأدلة التى لن يصدقها أحد عن علاقات مشبوهة لا يتصورها أحد.

قال: وهل يعرف أنيس نفسه ذلك؟

قلت: يعرف معظمه.

قال: إن هذا الا يظهر أبدًا فى كتاباته.

قلت: لا... إنه لا يفتأ يردد قوله الشهير عن فروق التوقيت.

قال: وهل تعتقد أن هذه هى فلسفته؟

قلت: لا أعتقد.

قال: فما فلسفته إذًا؟ أو قل لى كيف تراه ينظر إلى ما نحن فيه الآن من قلق على المستقبل؟

قلت: لا أكون ظالما لو أنى قلت: إنه يعلق أمام ناظريه لوحة جميلة يراها بأكملها لكن غيره لا يراها كاملة، لأن أنيس كتب عليها وفى آخرها سطرًا بالحبر السرى الخاص الذى لا يراه أحد سواه:

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

■ ■ ■

الفصل الثالث

عبد الصبور شاهين كما عرفته

(١)

لم يصل أحد من معاصرى عبد الصبور شاهين إلى التأثير الضخم الذى ارتبط بهذا الاسم الكبير على مدى نصف قرن تقريبا، وعلى الرغم من أن عبد الصبور شاهين لم يصل إلى أن يكون شيخ طريقة، أو زعيم حزب، أو مدير جامعة، أو عميد كلية، فإن أثره فى جيله، وفى مجتمعه قد فاق تأثير هؤلاء جميعا، وقد كان له زملاء وصلوا إلى هذه المواقع الأربعة، لكنهم لم يتركوا الأثر الذى تركه عبد الصبور شاهين فى الأحداث التى قدر له أن يشترك فى صياغتها، أو فى تعديل مسارها على نحو أو آخر.

بالإضافة إلى هذا فإن عبد الصبور شاهين كان مرشحا للوزارة فى آخر مرة رشح فيها وزراء جدد من بين نجوم الحياة العامة، وأزعم أن اعتذاره الخاطف عن مشاورات الوزارة حتى لو لم يكن هو نفسه الذى أبداه أو أبلغه، كان من الأسباب العميقة التى دفعت القيادة السياسية إلى تقليل معدلات التغيير، وإلى الإبقاء على الوزراء فى مقاعدهم لفترات طويلة، ذلك أن ما وصل إلى القيادة السياسية عن اعتذار عبد الصبور شاهين جاء مصحوبا بما وصل من اعتذار أكثر من شخصية عامة أخرى، ثم تكرس الموقف الدرامى بعامود صحفى كتبه عميد الصحافة العربية فى ذلك الوقت الأستاذ مصطفى أمين ناصحا بالبعد عن المنصب الوزارى، مستخدما لفظا قاسيا فى وصف هذا المنصب، وهو ما حدا برئيس الجمهورية نفسه أن يعلق عليه مستهجنا صدور مثل هذا اللفظ عن رجل فى سن والده.. على حد تعبير الرئيس فى ذلك الوقت.

(٢)

ومن الطريف أن عبد الصبور شاهين، الذى كان وقتها عضوا فى مجلس الشورى باختيار الرئيس نفسه، سرعان ما اندفع إلى معركة عابرة مع بعض أجهزة الحكومة دون أن يدرى هو نفسه، ودون أن تدرى الحكومة أن هذه المعركة ستتحول إلى أخطر معركة اقتصادية داخلية خاضتها حكومات عهد الثورة، وكانت هذه المعركة هى معركة شركات توظيف الأموال التى فاقت فى تأثيراتها معارك التأميم، والتمصير، والإصلاح الزراعى، وتحولت لتؤثر فى الطبقة الوسطى الدنيا بدلا من أن تؤثر فى طبقات عليا.

ومن المدهش أن عبد الصبور شاهين حين قاد المواجهة مع الاقتصاديين فى التجمع الكبير الذى خطب فيه ببلاغته، وقوة تأثيره قد دفع الحكومة إلى أن تسارع بخطواتها إلى حد التعسف مع أبناء الشعب، ثم إلى حد التعنت أيضًا متخذة سياسات أدت إلى خراب بيوت كثيرة، وقد كان فى وسع الحكومة لو عالجت الأمور أن تنقذها، لكن الحكومة وجدت نفسها فى مواجهة عبد الصبور شاهين وهو الرجل الأقوى من الإقطاع، ومن الرجعية، ومن الشيوعية(!!)

وهكذا حسمت المعركة مبكرا حتى لا يأكلها منطق عبد الصبور شاهين، ولا قدرته على الإقناع، والزعامة.

ومن الطريف أيضًا فى هذه الدراما أن الأحداث تسارعت إلى الحد الذى لم يعد أحد يذكر معه بداية المعركة، ولا الدوافع وراء حسمها على نحو ما حدث، ومن الطريف أخيرا أن دور عبد الصبور شاهين أصبح ينسب إلى الشيخ الشعراوى من باب التغليب، كما يقول علماء اللغة العربية، الذين كان عبد الصبور شاهين نفسه واحدا منهم، وكذلك كان الشيخ الشعراوى، لكن كلا الرجلين عرفا فى الأوساط الجماهيرية بصورة أخرى هى صورة علماء الشريعة.

(٣)

بدأ عبد الصبور شاهين حياته العامة منذ كان طالبا، وقد عانى من انتمائه السياسى للإخوان المسلمين، ودفع ثمن هذا الانتماء من سنوات عمره حين ضاع منه عام دراسى وهو بعيد عن

موقعه فى الدراسة، لكنه تخرج بتفوق، ثم قدر له أن ينشق بصورة أو بأخرى عن الإخوان المسلمين، وهكذا كان من أصحاب الحظ الحرج الذين يحسبون على الإخوان!! ولا يحسبهم الإخوان منهم!!

وحين أراد عبد الصبور شاهين، وهو الخريج المتفوق، أن يختار قسم الشريعة الإسلامية ليكون معيدا فيه، قيل له إنه ليس مسموحا له بهذا بسبب ماضيه السياسى، وأن المسموح له به هو أن يكون معيدا فى قسم علم اللغة، حينئذ قال عبد الصبور: إنه سيقبل هذا الاختيار الإجبارى، لكنه سيحول علم اللغة إلى علم من علوم الشريعة، ومن الطريف أن رسالة عبد الصبور شاهين كانت عن القراءات الشاذة فى القرآن الكريم.

(٤)

وفى فترة تأهله العلمى فى الدراسات العليا لمع اسم عبد الصبور شاهين القادر على الخطابة فى المسجد، وعلى الكتابة فى الصحافة (بما فيها اليسارية)، وعلى الإسهام النشيط فى الحياة السياسية المحدودة فى ذلك العصر، لكن تفوقه الساحق ظهر حين تقدم فى تعلم اللغة الفرنسية، وحين اتصل بعلماء السربون، والأساتذة الفرنسيين، وحين وضع رسالة عظيمة فى مجال تخصصه بإشراف هؤلاء عن بعد.. وعن قرب.

لكن الزمان كان يعطى عبد الصبور مجدا لم يصل إليه أحد من معاصريه فى ذلك الوقت، فقد كان هذا الشاب المتفتح أول مَنْ أدرك أن فرصة الإسلام السياسى فى الظهور على سطح المجتمع الأوروبى قد حانت، حتى وإن لم يلحظها أحد، وواكب هذا أن قدم عبد الصبور شاهين للفكر الإسلامى، وللمكتبة العربية أفضل عمل فكرى ظهر فى تلك الفترة، وهو كتاب «الظاهرة القرآنية» الذى وضعه الفيلسوف الجزائرى المسلم المهندس مالك بن نبى، صاحب نظرية شروط النهضة وما شاكلها، وقد ترجم عبد الصبور شاهين هذا الكتاب الذى كتبه صاحبه بالفرنسية فى لغة عربية كفيلة بالارتفاع بما كان فيه من فكر عال، وإلى حد أن أصبح عبد الصبور فى ذهنى وفى ذهن المنصفين شريكا لمالك بن نبى فى هذا العمل العظيم.

(٥)

وفى هذه الفترة أتيح لعبد الصبور شاهين أن يلعب دوره فى التأثير المباشر على بعض اليساريين للتحول إلى النظرية الإسلامية بديلا عن الماركسية، وهو الاتجاه الذى عبرت عنه اتجاهات متعددة من المزج، أو الإحلال، أو التبديل، أو التحول، لكن أبرز نجوم التحول كان هو المفكر المصرى مصطفى محمود، الذى كان صديقا حميا لعبد الصبور شاهين، كما ربطتهما علاقات نسب فى مرحلة شبابهما.

وتمضى سنوات أخرى ليقدم عبد الصبور شاهين إلى القارئ العربى قنبلة جديدة كانت بمثابة الراية الخفاقة فى بدايات الحركة الإسلامية فى سبعينيات القرن الماضى، وهى ترجمة كتاب «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان، ومع أن هذا الكتاب لم يكن مثل «معالم على الطريق» مثلا بمثابة مانفستو الحركة الجديدة، فإنه بعنوانه العبقرى، وبأرقامه الدالة، وبمقارناته الذكية كان مصباحا قويا غير قابل للإطفاء، ومرة ثانية كان دور عبد الصبور شاهين ذكيا، ودالا، ومؤثرا.

(٦)

مارس عبد الصبور شاهين أستاذية علم اللغة فى مصر، وفى الكويت، وانشغل بما ينشغل به الأساتذة الأكاديميون من دراسات للطلبة، ودراسات عليا، ولجان علمية، وتقديم الخبرات، وتقييم الأساتذة التالين له، والتأليف، والتحقيق، والشرح.. إلخ، وأخذ هذا كله من وقت رجل كان فى نظر كثيرين أولى بأن يتفرغ للفكر المحض، لكن الأستاذية كانت، ولاتزال، ساحرة، وقادرة على الاستحواذ، والاستئناس، وعلى إقناع أصحابها جميعا بأنها أولى بهم من كل ما غيرها، ومن غيرها كذلك.

وهكذا ظل عبد الصبور شاهين يمارس الأستاذية طيلة حياته وطيلة سيره دون مبالغة، وإنى لأذكر أننى كنت ألقاه صدفة فيدعونى إلى ما هو فيه من نشاط علمى إذا كان وقتى يسمح، أو بقدر ما يسمح وقتى، أذكر أنى قابلته فى شارع قصر العينى فقال إنه متوجه لمراجعة البروفة الأخيرة فى المطبعة العالمية قرب ضريح سعد، فذهبت معه أصححها، وأذكر أنى قابلته (١٩٧٨) وهو متوجه إلى ركوب سيارته، فدعانى إلى مناقشة رسالة دكتوراه لأحد تلاميذه،

فسألته عمن يشاركه المناقشة، فأجابني: صديقك رمضان عبد التواب، وأستاذ آخر ستصادقه هو حسن عون، ومن الطريف أن صاحب الرسالة التى حضرت النصف الأول من مناقشتها، حسبما كان متاحا لى من وقت ليلتها، كان هو الصديق الدكتور محمد حسن عبدالعزيز، الذى انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية فى اليوم الذى انتخبت فيه أنا أيضًا.

(٧)

ثم جاءت المعركة الأكثر شهرة فى حياة عبد الصبور شاهين، وهى معركة نصر حامد أبوزيد، ولست أدرى إن كان الأوان قد آن للاعتراف بأن هذه المعركة كانت معركة مصطنعة تماما، وأن نصر حامد أبوزيد نفسه استخدم فيها ليكون درعا بشرية يصعد عليه غيره إلى المناصب العليا، وإلى صدارة الحياة الثقافية، وربما لا يصدق أحد حقيقة ما حدث فى بداية هذه المعركة الصناعية، أو فى هذه المسرحية التى كانت مرحلة متوسطة ما بين المسرحيات الارتجالية، والمسرحيات عديمة النص.

وقد رويت حقائق هذه المعركة كلها فى مقال مطول نشرته جريدة «الأهرام»، وأعدت نشره فى كتابى «مستقبل الجامعة المصرية»، لكنى أكتفى هنا بأن أروى أن الدكتور عبد الصبور شاهين حين بدأ فى فحص أول أعمال نصر حامد أبوزيد لتقييمها ظن أن الأبحاث جاءته على سبيل الخطإ، وأنها أبحاث أستاذ متقدم للترقية فى قسم الفلسفة، فأخذ يبحث فى الأبحاث الأخرى التى لم يكن تصفحها فوجدها كلها أقرب إلى ميدان الفلسفة منها إلى الميدان الذى تقدم به صاحبها للترقية فيه، وهو «اللغة العربية وآدابها».

(٨)

وهكذا فإن عبد الصبور شاهين اتصل ليتأكد من أن الأوراق لم تأت إليه من باب الخطإ الذى يحدث عند تبديل المظاريف بالصدفة، فلما تأكد أن الأمر يخلو من الخطإ الإدارى بدأ يفحص، ولأنه مغرم بالفلسفة ودارس لها من قبل، ولأنه من هواة الإسلاميات بطيفها الواسع، فلم يكن صعبا عليه أن يقيم أبحاثا جاءت إليه للتقييم.. لا المباركة !! ولا للبصمة !! ولأن اللجنة

العلمية الدائمة فى ذلك الوقت كانت تضم مَنْ بقى من السلف الصالح من مؤسسى الجامعة الأوائل، ومنهم القطبان الأولان لمعيدى الجامعة المصرية: سهير القلماوى، وشوقى ضيف، فقد استمعت اللجنة إلى تقييم عبد الصبور شاهين وأقرته على تقييمه، ووقع هؤلاء الأعلام جميعا باعتماد التقرير الذى كان عبد الصبور شاهين قد انتهى اليه، بمن فيهم مَنْ كانوا يودون «تمرير» أبحاث نصر حامد أبوزيد وترقيته، خصوصا بعد كفاحه العلمى، وبعد كبر سنه، لكن سهير القلماوى، وشوقى ضيف وغيرهما من الأساتذة الكبار، انتصروا للضمير العلمى، وخافوا الله فى مستقبل العلم فى هذا الوطن، ووصلوا إلى تقرير حقيقة أن أبحاث نصر لا ترقى به إلى الأستاذية فى ذلك اليوم، ومعنى هذا أن الفرصة متاحة أمامه لكى يجود ويرتقى.

لكن الطموح الزائد لأصدقاء نصر حامد أبوزيد جعلهم يقفون على رقبته، ويصعدون على جثته، ويصورون للمجتمع كل ما صوروه من أن عبد الصبور (وحده) ظلم نصرا (وحده)، وسرعان ما تنامى الإفك إلى حد الاستفزاز الذى نعرف أنه أثمر دعوة المحتسب المشهور (ى ب) إلى رفع قضية التفريق المشهورة، التى نسب إلى عبد الصبور أنه هو الذى رفعها مع أنه لم يفعل هذا، ولم يكن لعبد الصبور شاهين أى علاقة بهذا كله من قريب، ولا من بعيد، لكن آفة قومنا، وهى النسيان، نسبت إلى عبد الصبور ما لم يفعله، وهكذا مضت معركة من المعارك المعطلة للتقدم باسم التقدم، والمعطلة للعلم باسم الرأى، لكن أصحابها من قصار النظر فازوا فى نهايتها بما كانوا يبتغون، واحتسب عبد الصبور رأيه، واحتبس نصر حامد أبوزيد نفسه فى السجن الذى أراده له أصدقاؤه الذين لا يعلم إلا الله مدى إخلاصهم له، ومدى إخلاصهم لأنفسهم، وأى المديين أضخم.

(٩)

مضى عبد الصبور شاهين إلى لقاء ربه، وقد حاز من الدنيا طيباتها عملا صالحا، وذرية صالحة، وزوجة صالحة، وثروة صالحة. كان مغرما بالبناء، وبالتجديد، وبالنجاح، وبالكسب الحلال، وكان مقدرا لكل مَنْ ينجح فى هذا، وقد فاته تقدير كثير كان يستحقه، لكنه ـ فى رأيى رزق ما هو خير منه، حال مرضى بينى وبين السؤال عنه فى مرضه، لكنه كان أفضل منى فى السؤال الدائم عنى.. بل كان بالقطع أفضل منى فى كل شىء اشتركنا فيه!

الفصل الرابع

المهدى المنجرة

(١)

كان المهدى المنجرة فى رأيى المتواضع بمثابة الضلع الثانى فى المثلث الذى رسم الأمل المنشود فى مستقبل حقيقى لحضارة الإسلام فى العالم الجديد، وقد بنى على ما سبقه إليه الرائد الذى تولى تأسيس الضلع الأول فى هذا المثلث بعناية فائقة بالتفاصيل، بيد أن المنجرة تجاوز التفكير فى بناء الذات إلى التفكير فى طبيعة المواجهة المحتملة. وربما يصعب على كثيرين تصور طابع التكامل والتفاصل (بالصاد لا بالضاد) بينه وبين الرائد الأول أو رائد الضلع الأول الذى هو مالك بن نبى، وربما يمكن لنا أن نلخص الفارق فى إيجاز دال باستعارة عنوانى كتابيهما الأشهرين، فعلى حين كان مالك بن نبى يرسم ويحدد «شروط النهضة» فان المهدى كان واعيا لطبيعة «الحرب الحضارية» وشروطها.

كان المهدى المنجرة من أبرز المتحفظين على علاقات الغرب السياسية بالإسلام، بل وصل الحال به أن يتشاءم وينفى إمكانية قبول الغرب لوجود أنظمة ديمقراطية غربية فى بلاد المسلمين: «... لقد قُلتها وسأعيد قولها الآن: ليس هناك قوة غربية مستعدة لقبول قيام أنظمة ديمقراطية حقيقية وفعلية بالعالم الإسلامى. لأن مثل هذا التغيير سيضرب مصالحها التى توفرها لها، وبسخاء، الأنظمة المرتشية القائمة حاليا».

(٢)

ومنذ ربع قرت تولى المهدى المنجرة المشاركة الكبرى فى تنظيم أوّل لقاء حول مستقبل

الإسلام، فى الجزائر العاصمة، وشارك فى اللقاء العديد من العلماء من طبقة الغزإلى والغنوشى والترابى والقرضاوى. الذين شاركوه الرأى فى أن الإسلام وصل إلى أسوإ مراحل التقهقر فى العصر الحالى لأن المسلمين ابتعدوا عن الاجتهاد والتجديد وسجنوا أنفسهم فى ماض دون الانفتاح على المستقبل. وأن الإسلام كان دينا شديد الارتباط بالمستقبل، وكان يولى أهمية بالغة للمستقبل (مع واجب التمييز بين المستقبل والغيب). وفى نهاية اللقاء اتفق الجميع على ضرورة التصدى للأمية ومحاربة الفقر عبر توزيع عادل للثروات داخل البلدان وفيما بينها، وتخصيص استثمارات أكبر وأهم للبحث العلمى، للخروج بالعالم الإسلامى من نطاق الدول المتخلفة.

(٣)

لم يكن المنجرة فيما نادى به من آراء أسيرا لأيديولوجية محددة لكنه كان تعبيرا أمينا عما وصل إليه العقل الفلسفى الغربى (بالغين المنقوطة لا بالعين المهملة) فى العصر الحديث مع اهتداء واهتمام مواز بتجربة اليابان التى كان يراها نموذجا لابد للعالم الثالث من احتذائه. وكان بحكم الوظائف التى تولاها من أكثر العلماء إلماما بما تطور إليه هذا العقل المعاصر، ففى سنة ١٩٦٢ وهو على مشارف الثلاثين عينه المدير العام لليونسكو مديرا عاما لمكتبه. وفى سنة ١٩٧٠ عمل بكلية لندن للاقتصاد محاضرا وباحثا فى الدراسات الدولية. وفى ١٩٧٥ و١٩٧٦ تولى مهمة المستشار الخاص للمدير العام لليونسكو. ولما تأسس «الاتحاد العالمى للدراسات المستقبلية» انتخب رئيسا له إلى سنة ١٩٨١.

وكان المهدى المنجرة أصغر الأعضاء سنا فى نادى روما منذ تأسيس النادى فى ١٩٦٨، كما كان أحد ثلاثة اشتركوا فى تحرير التقرير الثانى للنادى، والذى صدر سنة ١٩٧٩م تحت عنوان: لا حدود للبحث والدراسة».. فضلا على أنه تولى رئاسة لجان وضع مخططات تعليمية لعدة دول أوروبية.

(٤)

على الرغم مما كان يبدو للمصريين من جفاف أفكاره وإغراقها فى التصورات المثالية فقد

كانت كتبه من الأكثر مبيعا فى فرنسا ما بين ١٩٨٠ و١٩٩٠. وقد خصص صندوقا خاصا من تلك العائدات المالية لمنح جائزة للحوار بين الشمال والجنوب، وفيما بعد طور غرضها لتكون جائزة لمن يدافع عن الكرامة.

وعلى عادة اليساريين فى التنبيه إلى الفرص الجيدة التى لقيها بعض العظماء فى بداية حياتهم فلابد لنا أن نذكر أن هذا الرجل العظيم نشأ فى بيت دين ويسار فى كنف أسرة محترمة من كبار التجار المتدينين والمثقفين، وقد أرسله والده لإتمام الدراسة فى أمريكا ليكون متميزا عن الأغلبية التى تدرس فى فرنسا بحكم العادة والتعود ومن حسن حظ المهدى أنه واجه موقفا إنسانيا وأخلاقيا جعله يضحى بأمريكا وبطاقتها الخضراء وجامعتها ودراسته ويعود إلى العالم القديم ليستكمل دراسته فى لندن.

(٥)

فى أمريكا التحق المهدى بمؤسسة «بانتى»، ثم التحق بجامعة كورنل وتخصص في البيولوجيا والكيمياء. ونجح مبكرا فى المزاوجة بين دراسته العلمية، والعلوم الاجتماعية والسياسية.

وفتحت إقامته بأمريكا عينيه على العمل الوطنى والقومى. فارتبط بمكتب الجزائر والمغرب بالأمم المتحدة، ورئاسة رابطة الطلاب العرب. ورفض التجنيد الإجبارى الذى كان مفروضا آنذاك على كل حاملى البطاقة الخضراء، ورفض المشاركة فى الحرب الكورية.

وآثر أن ينتقل إلى لندن سنة ١٩٥٤ لمتابعة دراسته العليا بكلية لندن للاقتصاد حيث نال شهادة الدكتوراه حول موضوع «الجامعة العربية».

وفى بلاده واجه المهدى اختيارا من نوع آخر جعله يؤثر الفكر على المناصب والرأى على الصداقة.

(٦)

وفى سنة ١٩٥٧ عاد إلى المغرب ليعمل أستاذا بكلية الحقوق بجامعة محمد الخامس، وتولى فى هذه الفترة إدارة الإذاعة والتلفزة المغربية بعد أن عينه الملك محمد الخامس على رأسها.

(٧)

وعرضت عليه مناصب وزارة المالية ورئاسة الوزارة فى الحكومة المغربية، لكنه رفض مفضلا التفرغ للثقافة والبحث العلمى، وكان قد عرف بمواقفه المعارضة لسياسة ملك المغرب الحسن الثانى رغم أنه كان زميله فى الدراسة، وتعرض لهذه الأسباب للمنع من إلقاء المحاضرات فى المغرب، وقد لخص هو نفسه طبيعة علاقته بالملك الحسن الثانى فقال:

«علاقتنا مبنية على الاحترام فى إطار قول الحقيقة حتى إن أعضاء فى أكاديمية المملكة كانوا يعتبرون جرأتى فى الحديث عن أوضاع المغرب وعن الحياة السياسية راجعة إلى نوع خاص من الحماية أستمدها من معرفة قديمة بالملك، وهذا ليس صحيحا أبدا، ليس فى الموضوع سر. كان الملك يعرف آرائى وطبعى وموقفى وعدم استعدادى للتفاوض أو التنازل عن حريتى، وكان يحترم ذلك».

■ ■ ■

الفصل الخامس

محمود عبدالمنعم مراد

(١)

فقدت مصر بوفاة الأستاذ محمود عبد المنعم مراد علما من أعلام الوطنية والصحافة، ورمزا من رموز حرية الوطن والإخلاص للشعب.

كان إحساس محمود عبد المنعم مراد بالتاريخ عاليا وصادقا، لكن إحساسه بالمجتمع كان أكثر منه علوا وصدقا.

وكان إيمانه بالشعب هادرا وقويا، لكن إيمانه بالعمل كان أهدر وأقوى.

وكان حبه للتقدم متأججا، لكن إيمانه بالارتقاء كان أكثر ظهورا من حبه للتقدم..

وهكذا تكونت فى شخصيته عوامل اتزان قلَّ أن تتلاقى على هذا النحو فى شخصية عاشت وعانت، وأحبت واستعذبت، وجادت وجودت.

(٢)

بدأ محمود عبد المنعم مراد حياته الصحفية بعد فترة من التقلب فى وظائف التدريس والعمل الإدارى، ولم يكن من الصعب عليه أن يكتشف أنه خلق للصحافة، فقد كان رجلا معنيا بالحقيقة فى المقام الأول والأخير، وكان حتى أخريات حياته يبدأ زواره بالسؤال عما وراء الأخبار، وعلى الرغم من أنه كان يعرف الكثير فإنه كان يستزيد من معارف غيره، وكان يصرح بهذا مبتعدا عن التعالم وعن التخابث فى الوقت نفسه.

كانت عظمته واضحة للعيان، وقد قادته إلى البساطة فى التعبير والتصوير، وكان مع عنايته بوضوح الفكرة حريصا على وضوح العبارة، ولم يكن يدور بخلده أن «يتفذلك» ولا أن «يتحذلق». ومن الغريب أن أسلوبه ظل بعد الثمانين أقرب ما يكون إلى أسلوب أبناء الثلاثين، وقد ظل قادرا على أن يفيض فى كتابته اليومية وغير اليومية كما لا يفيض نهر النيل إلا فى موسمه..

(٣)

كانت الأفكار تتدافع على قلمه، وكان يمسك بها إمساك المقتدر القادر عليها، وكان صدقه يحميه من اللجوء إلى النظريات كوسيلة للتبرير، وكأنه كان يقول فى كل مقال من مقالاته: إن الحقيقة المدركة أقوى من كل تصوير.

وكان منحازا للشعب فى مجموعه، وللمستضعفين بلا استثناء، وكان مع هذا الانحياز متشبثا بالمستقبل، يطالب بالعمل من أجله حتى لو أن هذا العمل اقتضى التضحيات الجسام، كان من أنصار الحرية وقد دفع ثمنها عن حب وطواعية ورضا من حياته ومن حريته ومن قوته ومن راحة باله، ومع هذا فإنه كان يتفهم دواعى السياسيين والعسكريين الذين لا يؤمنون بالحرية المطلقة.

كان يراهن على الحرية وعلى جدواها، لكنه كان يعذر الذين لا يؤمنون بها ولا بجدواها، كان يتمنى لهم الهداية لكنه كان موقنا بأن هذا ضد طبائع الأشياء.

(٤)

يذكر التاريخ القومى المعاصر لمحمود عبد المنعم مراد بكل إنصاف موقفه فى أزمة مارس ١٩٥٤ وما انطلق منه هذا الموقف الشجاع الجبار وما دلّ عليه من وطنية صادقة، وتمسك بالمبدإ ودفاع عن الديمقراطية، وتوظيف للصحافة وللكلمة من أجل الشعب ومستقبله، ويذكر التاريخ لمحمود عبد المنعم مراد أنه انحاز إلى الحق وكان انحيازه إلى الحق بقوة فى الوقت الذى انحاز فيه آخرون إلى المصالح قصيرة النظر وإلى الاستمتاع بمجاراة السلطة.

(٥)

ويذكر التاريخ لمحمود عبد المنعم مراد أنه لم يتوقف لحظة واحدة للتفكير فى اللعب على

الحبلين، ولا فى المناورة، ولا فى فتح الباب أمام نفسه للتراجع، كما أنه فى الوقت ذاته، وكان مديرا لتحرير أكبر جريدة مصرية فى ذلك الوقت، انحاز كلية إلى الرهان على الديمقراطية على الرغم من أن الظروف لم تكن فى صف رهانه، لكنه فيما يبدو كان قد رزق التوفيق فى أن يحفر لنفسه تاريخا بارزا فى لوحة الشرف التى يحتفظ الوطن فيها لأبنائه المخلصين بمكانتهم مهما سبقهم إلى متاع الدنيا غيرهم من الأفاقين والعملاء وقصار النظر.

(٦)

بدأ محمود عبد المنعم مراد حياته الصحفية من مكانة متقدمة أتاحتها له دراساته وتجاربه الثقافية، وقد كان (١٩٤٠) من طلائع خريجى قسم اللغة العربية فى كلية الآداب جامعة القاهرة حين كان التخرج فى هذا القسم يدفع أبناءه إلى اقتحام مجالات الترجمة والكتابة والتأليف موظفين ما نما فيهم من فهم جيد للغة وللكلمة والحضارة، وقدرات عالية على التحرير والتعبير.

ويذكر تاريخنا الأدبى أن محمود عبد المنعم مراد ترجم عن الإنجليزية «الحب الأول» للكاتب الروسى تورجنيف، وقد نشرت دار الكاتب المصرى - التى كان طه حسين يتولى أمرها - هذه الترجمة لمحمود عبد المنعم مراد فى طبعة فاخرة، ومن العجيب أن هذا الرجل فى ظل ظروف الاعتقال والشتات لم يكن يملك نسخة من عمله هذا مع أنه ناشر وصاحب مكتبة، وقد كان لى الشرف أن أهديه منذ سنوات نسختى من عمله هذا الرائع الذى كان ينطق بالقدرة على التجويد كنتيجة حتمية للإخلاص للفكرة وللعمل، ومع أن سلاسل كثيرة معروفة كانت تبحث عما تنشره لمن هم أقل منه كيما تكسب أقلامهم، إلا أنه بشخصه وأخلاقه لم يشأ أن يدفع بهذا الكتاب إلى أى من هؤلاء.

(٧)

كان محمود عبد المنعم مراد أهل تقدير، وكان قادرا على أن يمد يده - بل روحه - لكل مَنْ يستحقون التقدير والتشجيع، وقد جمع بين روح الشيوخ فى حكمه على الأمور، وروح الشباب فى انفعاله بها، ولم تكن حكمته بقادرة على أن توقف اندفاعه المتوثب نحو اليسار بكل ما يعنيه،

ولا كانت اندفاعاته تحول بينه وبين إدراك الجانب الآخر من الحقيقة الذى كانت تزوده به ثقافته وتجاربه كما كانت تزوده بالقدرة على فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل.

كان من حظى أن أجلس إليه وأستمتع بصحبته، وقد اكتشفت من مدارسة تجربته الثرية وتأملها أن الحكمة أبسط من كل منطق، وأن الحب أنقى من كل عاطفة، وأن الحديث ألذ من كل متعة، ولم أكن أخرج من لقائى به إلا بشىء جديد..

ومن عجب أنى ما رأيت صفاء الحقيقة وإيمانها عند أحد كما وجدته عنده، ويبدو لى أن الله – سبحانه وتعالى – قد مَنّ عليه من هذه النعمة بالقدر الذى جعله ينتصر على كل ما ابتلىَ به فى الحياة مرة بعد أخرى، سواء فى ذلك فقد الأبناء أو غدر الأدعياء، لكنه فيما يبدو لى الآن كان أقوى من كل صروف الزمان.

■ ■ ■

الفصل السادس

محمد عودة

(١)

فقدت مصر بوفاة الأستاذ محمد عودة.. مفكرًا وطنيًّا من طراز رفيع، جمع بين الاستبصار والاستظهار، وظل يؤدى دوره التنويرى والتثقيفى عقودًا متصلة فى حنو بالغ على تابعيه ومريديه، وفى لفظ عفيف، وظل هادئ.

وقد مارس الحياة السياسية عن حب للوطن، وشغف بالحقيقة، وظل حب الوطن والشغف بالحقيقة رائدين له فى كل ما كتب وصنف، وفى كل ما تحدث به، وعلق على الأحداث التى عاشها وسلم بالقدر فيها على نحو ما سلم بحتمية الصراع، وبحتمية نتائجه.

(٢)

كان - رحمه الله - رجلًا نبيلًا أوتى العزة والكرامة، كما أوتى العطف والتواضع، وكان مثقفًا أصيلًا تمثلت فى إنتاجه أرقى وأصفى وأنقى تجارب بنى وطنه.

وقد عاش من أجل وطنه، كما عاش من أجل ثقافته، وأثر فى عديدين من الذين سعدوا بمعرفته، وإن أدركوا أنه من الصعب أن يكونوا على مثاله فى تجرده وحدبه وتعففه.

ولست أبالغ إذا قلت: إن العقدين الأخيرين من الزمان لم يستبقيا من المفكرين الوطنيين المعلمين غيره، وإن كان هو نفسه حريصًا على أن يصور علاقته بمريديه على أنها صداقة الأنداد.

(٣)

عاش محمد عودة أحداث وطنه من برجه التخيلى الجميل الذى نجح فى حمايته من ديموجاجية المعارك، ومن براجماتية الأهداف، كما تمكن من حماية برجه أيضًا من حجاب المعاصرة، ومن قوالب الأيديولوجية.

وهكذا نجح هذا الرجل العظيم فى أن تكون أحكامه أقرب إلى الموضوعية فى عصر يعادى الموضوعية.

ونجح هذا الرجل العظيم فى أن تكون نبوءاته أقرب إلى المعقولية فى عصر كان يؤثر العبث.

ونجح هذا الرجل العظيم فى أن تكون تفسيراته أقرب إلى العقلانية فى عصر ثالث كان يؤثر تغييب العقل.

(٤)

وليس من شك أن محمد عودة قد عانى فى أجواء هذه العصور الثلاثة، وفى أنه أجاد التعبير عن هذه المعاناة، لكنه فى الوقت نفسه حافظ لنفسه على الاحترام العميق عند نفسه، وعند مَنْ عرفوه، وعند قرائه، وعند متابعيه.

كان إذا لقينى فى أخريات حياته يقول: لا تنسنا من كتبك العظيمة التى تؤنب فيها ثورة يوليو بهدوء واستمتاع، فكنت أبتسم فيعلق قائلاً: أليست هذه هى الحقيقة.

سوف تظل أفكار محمد عودة بمثابة منار هادئ لكل الذين يتأملون تاريخنا الوطنى الحديث والمعاصر، ولكل الذين يبحثون عن دور الفكر فيها، ولكل الذين يؤمنون بأن الحياة السياسية مرآة صادقة لتطور ثقافى واجتماعى أعمق يتطلب عقليات نافذة لفهمه، ولتأصيل التعبير عن حقائقه.

■ ■ ■

الفصل السابع

عبدالحميد يونس

(١)

كان المستشار عبد الحميد يونس نموذجًا لجيل من المثقفين المصريين الذين نشؤوا فى أوج عصر الليبرالية، وعاشوا صباهم وشبابهم كله فى ذلك العصر واستمتعوا بكل ما كان فى ذلك العصر من حرية الفكر وازدهار الإبداع ونهضة الفنون وتألق الصحافة وارتفاع قيمة المواطن، كان والده من رجال التربية والتعليم الذين وجهوا اهتمامهم إلى النهوض بالعملية التعليمية من خلال تجويد أدائهم لوظيفتهم كمدرسين متميزين، وقد أثاب الله هؤلاء وعوضهم خيرًا فى أبنائهم فكان من إخوة عبدالحميد يونس الأشقاء: القانونى والطبيب وأكثر من مهندس بارز فى شتى الميادين..

ولم يكن هؤلاء الأشقاء مهنيين ناجحين أو طلاب علم متفوقين فحسب، ولكنهم شأنهم فى هذا شأن أبناء المجتمع المصرى فى ذلك الوقت كانوا يمارسون السياسة ممارسة وطنية متعقلة أو متحمسة، فكان منهم على ما روى هو نفسه وعلى ما روى شقيقه المهندس محمد حلمى السعيد الذى أصبح وزيرًا فى عهد الثورة، من انتمى لمصر الفتاة، ومن ناصر الإخوان، ومن شارك الأغلبية الشعبية اقتناعها بالوفد المصرى الذى قاد الحركة الوطنية..

ومع كل هذه الاتجاهات كان بين هؤلاء الأشقاء من آثر عدم الاشتغال بالسياسة أو الانتماء السياسى، وبالطبع فقد كان حظ اللامنتمى فى العهد اللاحق وهو عهد الثورة أفضل من حظ كل منتمٍ.

(٢)

لم تتوقف الحرية المتاحة لعبد الحميد يونس عند حدود السياسة وإنما تعدتها إلى الممارسة الوظيفية، فقد وجد نفسه قادرًا على أن يبدأ العمل فى المحاماة واختار أن يبدأ العمل فى مكتب أحد الزعماء السياسيين، الذى أحب توجهه ومشى وراءه فيه، وهو الأستاذ أحمد حسين، وقد مارس المحاماة بالفعل فى القاهرة والأقاليم.

وفى الوقت ذاته اجتذبته الصحافة وأتاح له مصطفى أمين - أستاذ الصحافة ورائدها - فرصة ذهبية لم تكن لتتاح له فى أى عصر تالٍ، وهكذا أصبح عبد الحميد يونس قادرًا على أن يؤدى عملين لايبتعدان عن بعضهما لا فى الجذور ولا فى الثمار، وإن بدا للبعض أنهما عملان مختلفان، وما هما فى رأيى وفى ممارسة عبد الحميد يونس نفسه إلا وجهان لعملة واحدة فالصحفى هو محامى الأمة من حيث هى كائن واحد، وجسد واحد، والمحامى هو صحفى الرأى فى حالة خاصة أو فردية يجلوه ويكتبه وينشره، وينتصر له، ويترافع من أجله...

وكأنه يحول العام إلى خاص، كما يحول الصحفى الخاص إلى عام.

(٣)

وواقع الأمر أن عبد الحميد يونس أدى وظيفتيه هاتين فى المحاماة والصحافة باقتدار وتميز على مدى ثمانية أعوام (١٩٤٥ ـ ١٩٥٣) وكل الذين عاشوا هذه الفترة يذكرون جهده واجتهاده فى كتاباتهم بكل خير ومنهم على سبيل المثال الأستاذ أنيس منصور ،والأستاذ صلاح منتصر، والأستاذ ناصر الدين النشاشيبى.

بيد أن عبد الحميد يونس كان بفضل درجة من درجات إدراكات الحاسة السادسة قادرًا على أن يدرك أن العصر القادم بعد قيام الثورة لن يكون عصر الصحافة ولا عصر المحاماة، ومن العجيب أنه رغم نجاحه فى هذين المجالين قد آثر مبكرًا وقبل غيره أن ينخرط فى سلك إحدى الهيئات القضائية، ومنها إلى هيئة قضائية أخرى، فقد بدأ فى النيابة الإدارية، وسرعان ما انتقل إلى هيئة قضايا الحكومة، وقد وصل فيها إلى درجة المستشار عام ١٩٧٣ ثم نال درجة نائب رئيس الهيئة.

وقد سألته لماذا آثر البقاء فى هذه الهيئة على سلك القضاء مع أنه كان فى وسعه أن ينتقل إليه، ولم يكن هذا بالصعب عليه فى الظروف المواتية التى أتيحت له فى عهد الثورة، وفى بساطة شديدة أجابنى بأن عمله فى هذه الهيئة كان يتيح له أن يبقى فى القاهرة، على حين أنه لم يكن يضمن أين تذهب به تنقلات القضاء..

وهكذا كان الرجل صادقا فى تعبيره عن النزعة الإنسانية المتحضرة التى لا تطيق البعد عن عاصمة الحضارة والثقافة والنفوذ أيضًا.

(٤)

وبعد أن بلغ المستشار عبد الحميد يونس ما بلغ فى القضاء وأدركه سن التقاعد سعى إليه صديقه الحميم موسى صبرى واصطفاه مستشارا قانونيا لمؤسسة أخبار اليوم التى شهدت أحلى أيام شبابه، ومن حسن حظه أنها شهدت أيضًا أحلى أيام شيخوخته، وكان مواظبًا على الحضور إلى تلك المؤسسة كل يوم يلتقى بهذا وذاك، ويحل مشكلات بعض أهل قريته أو القرى المجاورة، ويتأمل فى الأحداث الجارية، ويستعيد الذكريات، ويجيد كتابة لقطات صحفية متميزة فى مجلة «آخر ساعة» ثم فى مجلة أكتوبر وكان متفوقًا فيها.

وحين أتيح له أن ينشر أول كتاب من تأليفه وهو فى حدود السبعين من عمره اختار أن يصور أمر سعادته بأن يكون مؤلفا على نحو ما صور نجيب الهلالى سعادة الوزراء حين يستوزرون حتى إنهم يفقدون نصف عقلهم حين يصبحون وزراء.

ومن الطريف أنه لم يجد أبلغ من هذا الوصف ليصور به فرحته بصدور كتابه، ثم توالت كتبه القليلة تقدم الإمتاع وتوثق بعض الوقائع، وكان من أشد مَنْ عرفت سعة صدر بالنقد أو تصحيح ما وقع فيه من خطإ أو لبس. وذلك من دون أن يغير من انتماءاته السياسية وانحيازاته الواضحة التى لم يكن ينكرها.

وإنى لأذكر بالفخر أنه تكرم علىَّ ومنحنى شرف مشاركته فى كتابة مقدمة واحد من هذه الكتب.

(٥)

وقد عرف القراء عن المستشار عبد الحميد يونس انحيازه التام إلى المجموعة التى آثرت لنفسها أن تكون بمثابة رموز للعهد الناصرى، وقد فسر القراء ذلك تفسيرًا طبيعيا أو منطقيًّا لأنه كان انحيازًا صادرًا عن روابط صداقة ونسب وقرابة مع بعض مَنْ حوكموا فى ١٥ مايو، لكنى أشهد أنه كان مع ذلك قادرًا على الانحياز إلى الحق والوطنية الحقة مهما كانت الرياح تجرى بالباطل فى اتجاهات أخرى.

وعلى سبيل المثال فإنه دافع فى أحد مقالاته عن وطنية السادات دفاعًا قويًّا لم يكن غيره ليستطيعه.

وخلاصة ما أقوله فيه اليوم وأنا أرثيه أنه كان ذاكرة حية، وعقلية ناقدة، ونفسًا مشفقة، وروحًا حانية، وعطاء فياضًا، وأبوة غامرة، وصداقة متصلة، ووطنية متقدة، ورؤية متقدمة.

رحمه الله رحمة واسعة وغفر له ولنا، وعوضنا عنه، وألهم أسرته ومحبيه الصبر والسلوان.

■ ■ ■

الفصل الثامن

إسماعيل النقيب

(١)

إسماعيل النقيب هو آخر أدباء الصحافة، فمن بعده أصبح أدباء الصحافة شيئا آخر (محترفا ومحترقا) شيئا غير هذا الأدب المتدفق فى كل لقطة، وفى كل جملة، وفى كل مقطع، وقد أدرك النقيب أعلام الجيل السابق على جيله فى الكتابة والفن والصحافة، ووضع رأسه برأسهم، فكان له ما أراد، كما قدر له أن يعيش رمزا للتجديد الذى كان عصره قد انتهى، وللتعبير المجيد عن المشاعر الرقيقة والنادرة.

عاش هذه الحياة علما فى الصحافة والسياسة والأدب والشعر وفنون القول جميعا. كان ينقد برقة، ويعلق بدقة، ويستقرئ الأحداث، ويحلل النوازع، ويحرص على كل ما من شأنه أن يحقق أمله فى توحد الأمة العربية التى هو ابن من أبنائها، كما كان يحرص بالقدر ذاته على أن ينفى عنها التمزق.

(٢)

عاش إسماعيل النقيب يبشر ولا ينفر، يستهدى التاريخ، ويعلى القيمة، كما عاش محبا للحياة والأحياء على حد سواء: يحتفى بالقيمة، وينتشى بالانتصار، ويسعد بالتقدير. كانت تعليقاته الشفهية رمزا للفهم والقدرة على الصياغة، وعلى الحكم العادل، وكانت قصصه المعبرة بحرا لا ينتهى من الإخلاص للوطن وقيمه وقممه.

وأشهد أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أفضلهما لجماعته وشعبه ووطنه، وما ترك فرصة للتجمع العربى إلا غذاها بقلمه أو سعيه.

كان قريبا من كبار رجال الخارجية والدبلوماسيين الذين حفظوا له جميعا روحه الوثابة، وقلمه المحب المعبر عن الأمانى القومية والوطنية على حد سواء.

انحاز للسادات فى الوقت الذى كان الانحياز للسادات فيه نوعا من أنواع الفداء المتفانى، وكان الإعراض على الانحياز للسادات مجلبة لكل المكاسب المادية، والفخر الأيديولوجى، والدعوات المنهالة، من هنا وهناك، لكن إسماعيل النقيب لم يشأ أن يخون ضميره، ولا وطنيته، وآثر أن يكون صادقا مع شعبه وقلمه.

(٣)

كان إسماعيل النقيب ظريف الطابع، لطيف العبارة، قادرا على استخلاص الجمال من مكامنه، وعلى التعبير عنه بما يستحق الجمال من ألفاظ تليق به، وتليق بالمجتمع المحافظ أيضًا، وكانت روحه المعابثة تجد نفسها فى صالة التحرير وطرقاتها بأكثر مما تجدها على صفحات الجريدة وأبوابها، لكنه كان يعيش الأستاذية الحقة التى تختص الملازمين له، بما لا تختص القراء الذين يقرؤون آثاره دون أن يكونوا على قرب مادى من شخصه، ولسانه، وتعليقه الآنى الطريف.

(٤)

كان فى وسع إسماعيل النقيب أن يتولى عددا من المناصب الإدارية فى الصحافة، لكنه كان بإحساسه المتفرد بقدرته هو نفسه على الإبداع يحب الحرية لهذا الإبداع، ويحرص على ألا تشوب إبداعاته أكدار الضبط والربط، وهكذا دفعه حبه للإبداع إلى أن يقدر ذاته بعيدا عما هو شائع من تقدير الذات، ومع أن تنازله عما يستحق جلب على القراء المعاناة مع مَنْ لا يستحق، فإن مكانة النقيب من أفئدة قرائه ظلت محفوظة.

(٥)

كان إسماعيل النقيب رجلا جميلا، وإذا أردت أن أشبهه على نحو ما يشبه البشر بعناصر

الكون فإنى أقول إنه كان بحرا من التاريخ الحى الذى عاصره وعصره وانعصر معه فى بعض الأحيان، كما كان شاطئا من الوفاء الجميل الذى مارسه وتمرس به فى كل الأوقات.

وكما كان إسماعيل النقيب نبعا صافيا للمودة والأصالة فى النطق والمنطق على حد سواء، فقد كان شلالا هادرا فى النقد والتقيم على حد سواء أيضًا.

وإذا أردت أن أصفه بتعبيرات المكان والزمان فإنى أقول: إنه كان ملاذا للباحثين عن الحكمة، وكان سقفا للباحثين عن التعبير الجميل، وكان منارة للشراقوة فى القاهرة.. يحبونه، ويفخرون بحبه.

وكان أبرز نموذج للفخر الوطنى بالقدرة على الاحتفاظ بالموروث، والتعبير عنه تعبيرا راقيا ومعتزا فى كل الأحوال، ومع كل هذا فقد كان متواضعا إلى الحد الذى يوصف معه بأنه لا يدرك القيمة العالية لسلوكه الظريف اللطيف.

رحمه الله رحمة واسعة، وعوضنا عنه وعوض السيدة الفاضلة زوجته وابنتيه وأصهاره وتلاميذه وأصدقاءه وكل من عرفه وكل قرائه.

■ ■ ■

الفصل التاسع

د. ناصر الأنصارى

(١)

كان الدكتور ناصر الأنصارى نموذجا بارزا للاجتهاد والدأب، وحب العلم وأهله، كما كان محبا للفن، متيما بالأعمال الفنية، وبتاريخها، ومكانتها فى نهر الفنون، وكان يحب التوثيق، كما كان يحب التنظير، وقد آثر لنفسه أن يستكمل دراساته العليا فى تاريخ القانون فى فرنسا، واختار أن يدرس موضوعا يتصل بعمله اليومى فى المراسم والبروتوكول، ووفق إلى إتمام رسالة قيمة عن نظم مصر البروتوكولية عبر العصور، وقد تطلب هذا البحث منه أن يلم إلماما جيدا بتاريخ مصر، لكنه لم يقف عند حدود الإلمام، وإنما تعمق فى دراسة تعاقب الدول والحكام، وخرج منها بكتابيه.. اللذين لخص تاريخ مصر فى أحدهما، وسرد الحكام وأعلامهم وشعاراتهم وشاراتهم فى الثانى.

(٢)

وقد وقع اختيار الوزير فاروق حسنى عليه لتولى إدارة دار الأوبرا (المركز الثقافى التعليمى) فى فترة صباها المتوثبة، فأضفى على هذه الدار من روحه المنضبطة، وشبابه الواثق، وأتاح لدار الأوبرا طيفا واسعا من الأنشطة التى تتجاوز حدود فنون السماع إلى فنون البصر، والعقل، والوجدان، والحوارين الثقافى والسياسى.

ثم انتقل بنشاطه إلى دار الكتب والوثائق القومية فاستعاد لها كثيرا من هيبتها، ورونقها، ونظمها، وساعد فى استعادة مكانتها العظيمة فى تاريخنا الثقافى والتعليمى، وبذل جهدا قاتلا

وخارقا للعادة فى التغلب على الإفساد الذى كان نتيجة طبيعية للإهمال الذى تعرضت له الدار دون قصد فى عقد من العقود.

(٣)

ورشحته إنجازاته وعلاقاته ليكون مديرا لمعهد العالم العربى فى باريس، فاستكمل فى هذا المعهد ما بدأه أسلافه من خطوات جادة فى سبيل التقريب القائم على التعريف والحوار، ونجح فى أن يضفى قدرا أكبر من الجدية على مساهمات العرب الموسمية فى نشاط هذا المعهد، وكان وجوده فى باريس محسوسا وملموسا، كما كان عطاؤه فيها مخلصا ومنجزا.

وشاء له قدره أن يختتم حياته فى الهيئة المصرية العامة للكتاب، ولم تمض شهور قليلة عليه وهو فى موقعه الأخير إلا وابتلى بالمرض، وإجراء الجراحات واحدة بعد أخرى، وتلقى العلاجين الكيماوى والإشعاعى، ومع أن العلاج نفسه كان كفيلا بأن تنوء به الجبال، فقد كان المرض الخبيث يعاود الظهور فى موضع آخر بعد أن يقاومه العلاج، وبعد أن يقاوم العلاج، وكان كل هذا الصراع يجرى وقد اتخذ من جسمه الضعيف ميدانا لجولات الكر والفر، ولصولات المرض والشفاء.

وكان ناصر الأنصارى صابرا محتسبا، مبتسما للدنيا وللناس، وراضيا عن نفسه وعما قدم، سعيدا بما أنجز، شاكرا الله على ما رزقه من نعم الدنيا، ومن حب الناس، ومن الاجتماع على حبه، وهو الرجل الذى كان أسيرا للأخلاق الرفيعة، كما كان قادرا على أسر الآخرين بتواضعه ورقته وتهذبه.

(٤)

كنت أرى فيه واحدا من جيل انقرضت أفراده، وكادت أخلاقه تنقرض من بعده.

كان نبيلا فى سلوكه تجاه الرؤساء والمرؤوسين على حد سواء.

وكان قادرا على اكتشاف الحقيقة من دون ادعاء، وعلى الوصول إلى الجوهر من دون إبطاء.

كان يعرف للناس أقدارهم، وكان معظم الناس يعرفون له قدره.

كان وجدانه سليما نقيا، انطبعت فيه صور الأمانة والنزاهة، والإخلاص وحب الحقيقة، وتحلى بإرادة بارعة عن الوقوع فى شرك المظهرية، والادعاء، والغرور، والتفلسف الكاذب.

(٥)

وقد نجح فى أداء وظيفته فى هيئة الكتاب نجاحا ساحقا، وقد ساعده فى كل خطواته مثقف نبيل هو الدكتور وحيد عبد المجيد، الذى أتيح له أن يتولى رئاسة الهيئة قبله، وأن يتولاها معه، فكان الرجلان وجهين لعملة واحدة نادرة وثمينة، ومصقولة بالفهم والذكاء، وحب التفوق، وعشق الوطن.

وقد تمكنا بنجاح منقطع النظر من أن يضعا الهيئة فى المكانة اللائقة بها بين دور النشر الكبرى فى العالم، واهتما بالشكل والموضوع فى نشر الكتاب، وبنشر القيم الثقافية والببليوجرافية، وبإتاحة الكتاب فى منافذ الهيئة ومعارضها، وبتنمية السلاسل، ورقى المجلات، وكان الدكتور ناصر الأنصارى يراجع بنفسه هجاء الغلاف، وسلامة نحوه، ودقة صورته، وجمالها، كما كان يراجع بيانات التوثيق الببليوجرافى، وكان حريصا على أن تكون إصدارات الهيئة صالحة للتعامل الإلكترونى على جميع المستويات فى المعارض، والمخازن، والواجهات.

وقد واجه بصبر بالغ، وحنو شفيف كل التراث الذى تراكم عبر سنوات طويلة من إيثار السرعة والسهولة، والابتعاد عن المنهج الصارم فى الإنتاج الجيد الملتزم، وكان مؤمنا بأن الإصلاح يتطلب الصبر بقدر ما يتطلب الحماس، وهكذا جمع فى سبيكة نادرة بين روح الإصلاح المتأنى، والحسم المتفانى، لكن هذا كله لم يتحقق إلا على حساب صحته أولا، ثم على حساب مقاومته للمرض ثانيا، ثم على حساب إقباله على العلاج والتزامه به ثالثا.

(٦)

والحق أنه كلف نفسه ما لا يطيقه بشر، لكنه كان يعرف أنه مقدم على لقاء ربه، فكان يحاول أن يستكثر من الحسنات، ومما يثقل به ميزانه، ولا نزكى على الله أحدا.

نفتقد اليوم فى ناصر الأنصارى اللفظ العفيف، والإحساس الشفيف.

ونفتقد فيه الإخلاص للفكرة، والإخلاص للمؤسسة.

ونفتقد فيه الولاء للدولة، والولاء للشعب.

ونفتقد بغيابه الصديق الصدوق، والناصح المخلص، والمحب الوفى، والإنسان النقى الذى أحب أسرته ومرؤوسيه، وضحى من أجل هؤلاء وأولئك بكل ما بذل فى حياته.

وهأنذا أودع اليوم فى ناصر الأنصارى ما ودعته بالأمس فى محمد السيد سعيد من حب لقطعة من النفس، والحياة، والوطن، والقيم، والشيم، والقمم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

■ ■ ■

الباب الثانى

فى أبراج السلطة والسياسة

الفصل العاشر

أسامة الباز

أبرز الذين صنعوا أسطورة مبارك

(١)

الأسطورة فى معناها اللغوى الأصلى هى الشىء المكتوب، لكن الناس يتصورون ويتداولون فى حديثهم أن الأسطورة هى الشىء الذى لا يصدقه العقل، وهم يقولون الآن، إن حكم مبارك بقدراته المعروفة لمصر كان أسطورة ... والحقيقة أن مبارك لم يحكم مصر بمبارك ولكنه حكمها بآخرين، وإذا كان مبارك بمثابة أسطورة حكمت مصر ثلاثين عامًا فقد كان هناك من صنع هذه الأسطورة، وأكبر هؤلاء أثرًا هو أسامة الباز الذى لازم مبارك منذ كان نائبا لرئيس الجمهورية وحتى سنوات أخيرة من حكمه.

كان أسامة الباز رجلا حاد الذكاء موفور النشاط وقد أدرك من المعرفة السياسية حدًّا جعله متئد الخطوة فى الوقت الذى كان غيره يحب سرعة الخطو، لكن حكمته غلبت نزوته منذ مرحلة مبكرة فى حياة نظرائه .. وكان هذا سر استمرار لمعانه كما كان أيضًا سرًّا من أسرار صناعة أسطورة مبارك على النحو الذى صنعت به وتمكنت من السيطرة على مقدرات الحياة السياسية المصرية طيلة ثلاثين عامًا.

(٢)

نشأ أسامة الباز فى بيت عالم أزهرى من العلماء القادرين على فهم العلوم غير الأزهرية، حتى إنه كان يتولى تدريس هذه العلوم فى الأزهر الشريف، كما كان بالطبع قادرًا على تدريس علوم الدين،

وعلى عادة الأساتذة الأزهريين فى ذلك الجيل فقد ربطته بتلاميذه علاقات وثيقة إذ العلم «كما يرى الأزهريون وتعلموا» رحم بين أهله، وتنقل الوالد فى معاهد الأزهر التى كانت محدودة الانتشار لكنها كانت موجودة فى دمياط والإسكندرية والزقازيق وطنطا فضلًا عن القاهرة وأسيوط.

وترك الرجل أثرًا جميلا فى نفوس تلاميذه الذين كانوا ينظرون فيما بعد إلى أسامة الباز وإلى شقيقه فاروق على أنهما ابناء أستاذهم العزيز.

تلقى أسامة الباز تعليما مدنيا تقليديا من التعليم المتميز المتاح فى عصر الليبرالية وأتيح له أن يدرس فترة تعليمه الثانوى فى مدرسة دمياط الثانوية فى الفترة التى شهدت حقبه من حقبها المتألقة، وفى هذه المدرسة عرف حسب الله الكفراوى وصلاح منتصر وعبد الرؤوف الريدى وغيرهم من خريجى دمياط الثانوية الذين لمعوا فى الحياة العامة فيما بعد.

(٣)

بدأ أسامة الباز حياته الوظيفية فى النيابة العامة وكان ينتظره مستقبل مرموق فى سلك القضاء، فهو منظم الفكر، قادر على الفهم والتخطيط والتكييف القانونى والتسبيب والترتيب والإسناد والاستشهاد، لكنه مع هذا آثر أن يرتاد آفاق العمل الدبلوماسى ثم آثر أن يستفيد من بعثة للدراسة فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولمع نجمه بين طلاب البعثات حتى وصل إلى موقع متقدم فى التنظيم الذى يضم هؤلاء الطلاب، فلما أتيح له أن يعود إلى مصر آثر أن يمارس الدبلوماسية من برج عال فى الخارجية على أن يمارسها فى ميدانها العملى فى سفارات مصر فى الخارج.

ومن الطريف أن هذا الرجل الذى أصبح لفترة طويلة بمثابة أكبر رجال وزارة الخارجية (حصل على درجة وكيل أول وزارة الخارجية وهو حول الأربعين) لم يعمل سفيرًا لبلاده خارج وطنه..

(٤)

وفيما كان أسامة الباز يقترب من الدرجات العليا فى الكادر الدبلوماسى فإنه كان يقترب أيضًا من الدوائر العليا فى صناعة القرار المصرى وفى نهاية عهد الرئيس عبد الناصر استعان به وزير الإرشاد القومى الجديد محمد حسنين هيكل كى يكون مستشارًا له فى هذه الوزارة.

ومع بداية التحول السياسى فى عهد السادات فإنه عاون الرجل المسؤول عن الاتحاد الاشتراكى سيد مرعى.

وحين أصبح إسماعيل فهمى وزيرًا للخارجية أصبح أسامة الباز مسؤولا عن مكتبه، ومشاركا له فى نشاطه الدؤوب من أجل السلام وهى المهمة التى واصل الاضطلاع بها حتى تمت على يديه وعلى يدى غيره معاهدة السلام فى عام ١٩٧٩.

(٥)

وعندما ابتعد إسماعيل فهمى عن السادات بالاستقالة فى ١٩٧٧ انتقل أسامة الباز بمسؤولياته ليكون مسؤولا عن مكتب نائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك وهى المهمة التى ظل محتفظا بها حين أصبح مبارك رئيسًا للجمهورية مع احتفاظه بمسمى منصبه الدبلوماسى كوكيل أول لوزارة الخارجية وهكذا كان مسمى منصبه هو أطول مسمى حين تشير الأخبار إلى من حضروا نشاطًا أو اجتماعًا مع الرئيس حيث كان ينص على أنه وكيل أول وزارة الخارجية ومدير مكتب الرئيس للشؤون السياسية، وقد تم حل هذه المشكلة فى السنوات الأخيرة بالإشارة إلى أنه المستشار السياسى لرئيس الجمهورية.

(٦)

ما هو حجم الدور الذى لعبه أسامة الباز؟

أستطيع أن أقول: إنه أكبر دور ممكن لرجل رمادى فى التاريخ .. وهذه هى أبرز ملامح هذا الدور:

أولا: لم يكن أسامة الباز يكتب خطابات مبارك الأولى لكنه كان يؤلفها كلها، ذلك أن الرؤساء السابقين من أسلاف مبارك كانوا يحددون للكتاب الأفكار التى يريدون الحديث فيها والمعانى التى يريدون التطرق إليها، والقضايا التى يريدون أن يبدوا فيها رأيًا، بل كانوا يحددون بالطبع بعض التصريحات أو التلميحات أو التهديدات التى يريدون تسريبها، وكان الكتاب يجتهدون فى تقديم أفضل الصياغات لهذه المعانى.

أما أسامة الباز فإنه كان يكتب ما يريد على نحو ما يريد، ولم يكن مطلوبًا منه إلا أن يفهم الرئيس ما يريد الرئيس أن يفهمه على مهل، صحيح أن مبارك كان يملك أن يحذف فقرة هنا أو هناك لكن هذا لم يكن يحدث إلا فى النادر جدًّا.

ولهذا السبب فإن أى قارئ محايد خالى الذهن من تاريخ مبارك وأسلافه جميعًا سيحكم ببساطة وسرعة وثقة بارتفاع المستوى الفكرى لخطابات مبارك ويرقى مضموناتها وبقدرتها على الاستشراف والتنبؤ، وهو ما كان مبارك بريئًا منه تمامًا.

(٧)

ونأتى إلى ثانى أبرز الملامح:

لم يكن أسامة الباز شريكا للرئيس فى الرأى تجاه الأحداث المفاجئة، لكنه كان صانعًا لهذا الرأى، صحيح أن مبارك كان يملك (وظل يملك) قدرة جيدة على اختيار البديل، لكن أسامة الباز كان هو صاحب البدائل كلها وكان بهدوء أعصابه وهدوء أدائه قادرًا على الوصول بمبارك إلى النقطة الحاسمة فى التوجه السياسى والاستراتيجى.

ولهذا كان مبارك يبدو وكأنه فكر وقدر ثم قرر، لكن الذين كانوا يعرفون الحقيقة كانوا يدركون أن مناط التوقع هو تفكير أسامة الباز، ولهذا كان الذين يجيدون تقدير توجهات الباز قادرين بالتبعية على التنبؤ بمواقف مبارك.

ومن الطريف أن هذه الأسلوب فى التنبؤ بسياسات مصر فى عهد مبارك لم يفشل أبدًا على الرغم مما كان يتوقعه كثيرون من استجابة لضغوط من هنا أو من هناك، أو رغبة فى السبق والزعامة، أو ميل إلى التأثير والقيادة ... إلخ.

(٨)

ونأتى إلى ثالث أبرز الملامح:

لم يكن أسامة الباز يستأثر بمبارك ولم يفكر فى هذا بل إنه كان أحرص المحيطين بمبارك على أن يتيح للرئيس الاتصال بدوائر واسعة من الساسة ورجال الفكر والمجتمع، كما كان أكثر

المحيطين به ترحيبا لاتصال الشعب به، بل لعلى لا أذيع سرًّا إذا رويت أن أسامة الباز لم يمانع فى أن يرتب اللقاء بمبارك لشخص خبيث معروف بالدهاء كان يريد بكل طريقة أن يزيحه عن موقعه المتميز، لأنه كان يرى فى نفسه أنه الوحيد الذى يصلح لهذا الموقع، وكان أسامة الباز بذكاء الأكاديمى الدارس يتوقع أن هذه المحاولة ستدعم وجوده هو ولن تنهيه على نحو ما تصور صاحبها.

ومن الطريف أن صاحب هذه المحاولة عاود الكرة بطريقة أخرى ففشل مرة أخرى، ثم سجل هذه المحاولة كتابة فى مقال شهير وقد فاته أن مبارك لايقرأ له، إلا ما يرويه له أسامة الباز نفسه، وقد قرأ الباز لمبارك، فى لحظة صفاء، ما كتبه الغريم فابتسم فى سخرية.

ومن المؤكد أن أسامة الباز نفسه قد أصبح فى سنواته الأخيرة أقرب إلى الأخذ بنصيحة مبارك له بألا يأبه بآراء ذلك الكاتب وأن ينساه تمامًا.

(٩)

ونأتى إلى رابع أبرز الملامح:

نجح أسامة الباز فى أن يطبع وجهة نظر مبارك بوجهة نظره هو فى القضايا الخلافية أو التى لايزال باب الاجتهاد فيها مفتوحًا.

وحتى لا أطيل على القارئ فإنى أضرب المثل بقضية واحدة هى قضية العلاقات المصرية الأمريكية.

كان من رأيى المتواضع ضرورة توسيع دائرة العلاقات المصرية الأمريكية على المستوى البرلمانى والجماهيرى وغير الحكومى من خلال أسلوب منهجى لا أجد مانعًا فى أن تقوم الخارجية نفسها بتنظيمه..

وكنت أرى فى مثل هذه الأسلوب ضمانة من ضمانات التعريف بالحقوق العربية من ناحية وبالطبائع العربية من ناحية أخرى، وهو ما يضمن مستوى من الفهم والتفهيم فيما يتعلق بكثير من القرارات المصيرية التى يتخذها الكونجرس الأمريكى على سبيل المثال.

وكنت أضرب المثل فى أحيان كثيرة بمدى ما كان يمكن (مثلا) أن يتحقق لنا من فائدة لو أن الزيارات البرلمانية (وهى كثيرة) أتاحت لاثنين من نواب البرلمان المصرى أن يعرفا أوباما عن قرب حين كان لايزال عضوًا فى مجلس الشيوخ أو فى الكونجرس الخاص بولايته... وهكذا

كما كنت أشير إلى أن الدكتورين محمد حسن الزيات وأحمد عصمت عبد المجيد قد عرفا الرئيس جورج بوش فى أواخر الستينات حين كان مناظرًا لهما ممثلًا للولايات المتحدة فى هيئة الأمم ومجلس الأمن، وأن هذه العلاقة قد أفادت الرجلين وأفادت مصر.

لم أكن فى موقع يتيح لى أن أضع رأيى المتواضع هذا على مائدة بحث أو قرار، وهكذا لجأت إلى من كانوا فى مثل هذا الموقع، وبعد فترة جاءنى الرد من خلال مناقشتهم مع أسامة الباز الذى أحالهم الرئيس عليه.

وكان رأى أسامة الباز واضحًا وضوح الشمس وهو أن أمريكا دولة مؤسسات فى المقام الأول والأخير، وأن التأثير المتوقع لمقترحى يظل هامشيًّا إلى أبعد الحدود.

ومع أنى مازلت أرى أن لمقترحى موضعًا تحت سماء الحقيقة فإنى أعترف أن الرئيس مبارك وقف بكليته مع رأى أسامة الباز وإلى درجة لم يكن أسامة الباز نفسه سيقفها مع رأيه لو كان هو نفسه رئيس الجمهورية.

(١٠)

ونأتى إلى خامس أبرز الملامح:

لم يحدث على الإطلاق أن شغل أسامة الباز نفسه بأى صغيرة من الصغائر المحتمل أن تكدر صفو علاقته بنفسه ولا صفو علاقته بمبارك.

ولن أطيل عليك فى رواية مواقف من هنا وهناك لكنى سأكتفى لك بالموقف الأكبر حين أصبح زكريا عزمى رئيسا لديوان رئيس الجمهورية ومكّن نفسه مِن أن ينظم الديوان بحيث يصبح هو الشخص الأول فى كل شىء وأن يمتد هذا إلى المظلة البروتوكوليه والإدارية

والتنفيذية... مع أن أسامة الباز كان يعمل فى الرياسة وهو وكيل أول للوزارة حين كان زكريا يتطلع إلى درجة المدير العام، ومع أن أسامة يكبر زكريا بسنوات ليست قليلة ..

كان أسامة الباز فى ذلك الوقت مريضا وكان يعالج فى المستشفى، ومع هذا فإنه لم يشغل باله بما فعل زكريا ولا بما قد يكون مبارك قد وافق عليه .. وحين حادثه القرباء منه فى هذا لم يزد على الالتفات برأسه ويده.

قل مثل هذا حين خلا منصب وزير الخارجية أكثر من مرة فلم يفكر فيه، وقل مثل هذا فى عدم ترحيبه بفكرة طرحتها ذات مرة وهى أن يكون شاغلًا لدرجة مستشار الأمن القومى على نحو ما هو معمول به فى النظام الأمريكى، وعلى نحو ما كان معمولًا به فى مصر نفسها فى الفترة التى اندلعت فيها حرب أكتوبر، وقل مثل هذا فى كثير مما يعرفه كثير من الناس.

(١١)

ونأتى إلى سادس أبرز الملامح:

لو أنك طلبت من أسامة الباز أن يقرأ نصا مكتوبا أو خطابا رئاسيا فسوف يروعك أنه سيقرأ النص على نحو ما كان مبارك يقرؤه .. مع أنك تعرف أن أسامة هو الذى كتب النص .. ومع أنك قد تقتنع بما أوردته لك من أن أسامة هو الذى ألف النص ولم يكتبه فحسب، ومع أنك قد تقتنع أيضًا أن أسامة هو الذى كان وراء كل جملة وكل كلمة فى النص وفيما وراء النص.

هل تستطيع أن تقول: إن مبارك كان فى أدائه مؤديا ملتزما بما ألفه ولحنه ووزعه أسامة الباز، أم أنك تفضل أن تقول: إن شخصية أسامة تماهت تمامًا فى شخصية مبارك حتى أصبح هو عقل مبارك وإن تحرك على قدمين؟

إن للقصة وجها آخر لا يقل أهمية عن كل هذه الوجوه، ذلك أن أسامة الباز نفسه فى السنوات الأخيرة من عصر مبارك كان قد تأثر بمبارك إلى أكبر حد ممكن فأصبح فى فعله وكأنه مبارك، وفى رد فعله وكأنه مبارك، بل أصبح فى نظرته للأحداث وكأنه مبارك، وأصبح فى حكمه على الأمور وكأنه مبارك، وليس فى هذا مبالغة من أى نوع.

وسبحان من أبدع خاصية الأوانى المستطرقة وجعلها أساسا فى النفوس البشرية!

(١٢)

بقيت قصة لا أعتقد أنى أستطيع إغفالها.

أذكر أن أحد زملائى من الأطباء الظرفاء سألنى ذات مرة عن الفعل الذى كنت أصف به هذه العلاقة بين هذين الشخصين لأنه نسى ذلك الفعل العربى الصعب على التذكر على حد تعبيره، فأجبته بعد تفكير: تقصد ما كنت أقوله من: شخصية هذا تماهت فى شخصية ذلك؟

قال صديقى: فتح الله عليك..

قلت: أظنك معجبًا بالفعل..

قال: أصدقك القول؟

قلت: نعم.. قال إنى معجب بالفعل، لكنى لا أراه الأدق..

قلت: وما الأدق فى نظرك؟

قال: تحذف الميم من الفعل.. ولا تفغر فمك من الدهشة.

■ ■ ■

الفصل الحادى عشر

ضياء الدين داود

(١)

كان ضياء الدين داود إنسانا سويا بمعنى الكلمة الكامل.. بدأ حياته فى الريف المصرى فى عصر كان يشجع العلم ويحتفى بالمتعلمين، فآثر أن يكون من بين الذين يحتفى بهم أهلهم فى الريف، لا فى العائلة فحسب، وسرعان ما أدرك الحقيقة الكبرى التى تغيب عن أمثاله فى ظل سعيهم إلى الصعود الاجتماعى، وهى أن واجبه أن يحتفى بالناس لا أن ينتظر احتفاء الناس به.

وهكذا فإنه سرعان ما ترجم عقيدته إلى قرار بالبقاء بين الجماهير فى هذا الريف، مع أن أبسط تقاليد زمنه أن ينتقل إلى عاصمة المحافظة ليعيش فى ضوء الكهرباء التى لم تكن قد وصلت الريف بعد، لكنه لم يفعل، وبقى فى الريف.

(٢)

وبعد سنوات أصبح ضياء الدين داود نائب الدائرة، وكان من المنطقى - لا الطبيعى فحسب - أن ينتقل إلى عاصمة المركز ليقيم فيها، لأنه أصبح ممثل المركز كله، وليس ممثل قريته فحسب، لكنه لم يفعل أيضًا، وبقى فى الريف على الرغم من أن عمدة المدينة التى هى عاصمة مركزه كان عمه مباشرة، وكان فى المدينة عم آخر على قيد الحياة، وأولاد عمومة كثيرون، لكن ضياء الدين داود الإنسان السوى آثر أن يبقى مع الجماهير التى دفعت به إلى صدارة المشهد السياسى إقليميا، ولم يكن بقاؤه بقاء ماديا فحسب، لكنه كان بقاء معنويا بكل ما تعنيه الكلمة من وجود القدوة والسند والونس.. إلخ.

(٣)

ثم شاءت الأقدار أن ينتقل ضياء الدين داود من محيط دمياط إلى محيط مصر كلها حين أصبح وزيرا للشؤون الاجتماعية بعد مظاهرات الطلبة فى ١٩٦٨ لينضم إلى مجموعة من أساتذة الجامعة المحبوبين الذين دفع بهم الشباب إلى مقاعد الوزراء فى نهاية عهد الزعيم جمال عبد الناصر، وجاء ضياء الدين داود إلى القاهرة بعقلية الزائر الخفيف الذى لابد أن يعود فى نهاية الأسبوع إلى مسقط رأسه حيث أراد أن يبقى وأن يموت وأن يدفن.

كانت القاهرة حافلة بأقاربه من الدرجات القريبة جدًّا، لكنه كان فى القاهرة عابر سبيل يقيم فى أحد فنادق وسط المدينة، ويؤدى دوره فى البرلمان، ثم فى الوزارة ويعود إلى حيث أراد أن يؤدى واجبه الأساسى فى قرية عظيمة قدر لها أن تتحول على يديه إلى مدينة جميلة، وأن يتم هذا التحول فى الدور الطبيعى لها بعيدا عن سطوة الذين يريدون من التاريخ أن يعترف بسطوتهم، وبعيدا عن التكلف الذى يهتم بالشكل على حساب الجوهر.

(٤)

صعد نجم ضياء الدين داود كما لم يصعد نجم آخر فى الحياة المصرية فى عهد جمال عبد الناصر، والذين يعنون بدراسة آليات الصعود السياسى يجدون فى صعود ضياء الدين داود أكبر دليل حاسم على حيوية نظام جمال عبد الناصر حتى سنواته الأخيرة، وهى الحيوية التى أثبتت وجودها بعد شهور قليلة بتصعيد صنو آخر لضياء الدين داود ليحل محله فى وزارة الشؤون الاجتماعية عقب انتخاب داود عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى، وكان النجم الآخر (أو الصنو الآخر) شبيها فى حياته السياسية بضياء الدين داود.

وكأنما أدرك عبد الناصر حجم الصواب فى قراره بتولى ضياء الدين داود الوزارة، فأراد أن يكرر التجربة مع برلمانى آخر يتمتع بالكفاءة والطموح وثقة أهله فى إقليمه، وهكذا جاء حافظ بدوى ليخلف ضياء الدين داود، وليواصل الصعود بعد هذا على نحو ما واصل ضياء الدين داود من قبله.

(٥)

وجد ضياء الدين داود نفسه فى مجلس الوزراء، ثم فى اللجنة التنفيذية العليا فى مجتمع صغير من كبار المسؤولين يحرص بعضهم على الحديث المثبت لقدراته، ويحرص آخرون على الحديث المثبت لولائه، ويحرص آخرون على أن يتصدى لما يبثه حديث الآخرين من تشكيك فى كفايته أو قدرته أو إنجازه.

ولم يكن ضياء الدين داود خبيرا بالحديث فى هذه المستويات، لكنه كان يعرف معرفة اليقين أنه جاء إلى هذا المكان بفضل الشعب، وفضل قائد يحب الشعب ويحبه الشعب، ولهذا فإنه آثر الصمت حين لا يكون للكلام مردود على مصلحة الشعب، وآثر الحديث حين يتجه الحوار إلى مصلحة الجماهير المباشرة، أو حقوقها التى لابد من التفكير فى عودتها إليها.

وهكذا انضم داود إلى لجان مجلس الوزراء الخاصة بالحريات، وبخدمات الجماهير.

(٦)

وهكذا كان من الطبيعى أن يتولى مسؤولية تمثيل الوزارة فى البرلمان الذى هو عضو فيه، وأن يصبح وزير شؤون مجلس الأمة بالإضافة إلى منصبه، وكان أول وزير يتولى هذه المسؤولية فى عهد الثورة حين أدرك العهد نفسه أنه لابد من الديمقراطية بعد أن تحقق نجاح كبير فى التحول الاجتماعى، وبعد أن منيت الثورة بهزيمة فادحة قبل شهور.

وكان من الطبيعى لهذه الهزيمة أن تؤثر على خطط التنمية، وعلى تماسك الجبهة الداخلية، لكن حيوية نظام عبد الناصر وقوة إيمانه بأهدافه ساعدت على تجاوز الأزمة فى كثير من جوانبها بفضل إخلاص قادة محليين متنورين فدائيين من وزن وطبقة ضياء الدين داود، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن نظام عبد الناصر وضياء الدين داود ومعاونيهما على المستويين السياسى والتنفيذى قد تمكن بنجاح من استيعاب تهجير مدن إقليم القناة كله، وتوطينهم وإلحاقهم بالمدارس والخدمات، وتوفير الطعام والكساء والتموين والصحة والترفيه لهم جميعا، وذلك على الرغم من قسوة الأوضاع الاقتصادية والعسكرية بالطبع.

(٧)

مرّ ضياء الدين داود بعد هذا بمحنة ١٥ مايو ١٩٧١، فأبان موقفه فى هذه المحنة عن رهافة حسه، وعن البعد الإنسانى فى شخصيته، ومع أن ضياء الدين داود كان بحكم ماضيه السياسى أقرب إلى أنور السادات منه إلى المضادين للسادات، فإنه بحس السياسى المنظم وجد أن مكانه الطبيعى أن يكون فى المعسكر المناوئ للسادات.

ولسنا فى معرض الحديث عن الصواب والخطإ فى رؤية أى سياسى فى مثل هذا الصراع السياسى حين نتناول سير الأشخاص، وإنما يتناول التاريخ هذه الجزئيات بالدرس والفحص والتأمل والتقرير، أما الحديث عن الأشخاص فى مثل هذا الصراع فإنه يعنى فى المقام الأول باتساق مواقفهم مع تكوينهم الخلقى والسياسى والاجتماعى، ويعنى فى المقام الثانى باستقامة سلوكهم مع ما يفرضه معتقدهم السياسى على مواقفهم.

ومن هذه الزاوية نستطيع أن نفهم موقف ضياء الدين داود وأن نقدر أبعاده الحقيقية بعيدا عن القول بأن الحق كان هنا أو هناك.

(٨)

ومن الإنصاف أن أقول: إنى على الرغم من انحيازى فى هذه الحركة إلى الجانب الذى لم يكن ضياء الدين داود أحد أقطابه، فإننى أرى فى مسلك ضياء الدين داود فى مايو ١٩٧١ كل ما يتسق مع تاريخه، ومع عقيدته السياسية، ومع توجهاته، دون أن يكون هذا التقدير مدعاة للهجوم على السادات أو معسكره، ذلك أن الصراع السياسى يتسع لصوابين، بل لأكثر من صواب، ولأكثر من صوابين.

لكن هذا الذى أقوله الآن فى برود وبهدوء أعصاب، لم يكن هو الجو الحاكم فى الوقت الذى حدث فيه الصراع حول السلطة فى ١٩٧١، وهكذا قدر لضياء الدين داود صاحب الموقف أن يكتوى بنار هذا الصراع، مع أن كثيرا من أنداده استطاعوا بدهاء السياسيين المحترفين أن يتجنبوا الآثار الجانبية للمعركة، وأن ينجوا بأنفسهم، كذلك فإن كثيرا من أنداده السياسيين لعبوا على الحبلين حتى حسمت المعركة فصوروا أنفسهم أبطالا فى الجانب الرابح.

أما ضياء الدين داود فقد كان رجل موقف، وكان صريحا فى موقفه، وكان حريصا على أن يكون موقفه معلنا، وأن يتحمل تبعاته، ومع أن تجربة السجن وفقدان الحرية كانت جديدة عليه، وكانت قاسية عليه، فإنه وجد فيها التطهر الذى لابد للسياسى منه، ووجد فيها الصهر الذى لابد للزعيم منه، وقد اجتاز هذه التجربة كما يجتاز الإنسان السوى محنة المرض، ومحنة الألم، وخرج من هذه التجربة وقد ارتقت إنسانيته التى كانت راقية من قبل.

(٩)

وجد ضياء الدين داود نفسه فى مطلع الثمانينيات يواجه مجتمعا لا يكاد ينتبه إلى مجموعة من القيم الكفيلة له بمواجهة الزمن الجديد، كان يدرك أن مصر قد تخلصت من الحروب وقسوتها، لكنها على المستوى الرسمى بدأت تشغل نفسها عن قضية العدالة الاجتماعية، وبدأت تشغل نفسها فى قضية التنمية البشرية على المستوى القاعدى.

وجد ضياء الدين داود نفسه مسؤولا عن أن يذكر الجماهير بالموقف الأمثل من هاتين القضيتين متمثلا التجربة الناصرية فى جانبها المضىء، ولم يكن فى وسع ضياء الدين داود أن يفرض الناصرية على رئيس الدولة، أو على رئيس الوزراء، أو حتى على وزيرة الشؤون، لكنه كان يعرف أن من واجبه أن يعيد تذكير الجماهير والمجتمع والدولة والمفكرين (على حد سواء) بقيمة جميلة، بل بقيم جميلة تمثلها التجربة الناصرية، ومع أنه كان من الصعب على كل هذه الطوائف أن تنتبه إلى ما انتبه إليه ضياء الدين داود، فإن جماهير المصريين كانت تدرك أن وجود ضياء الدين داود يمثل فى حد ذاته تذكيرا بكل ما فى الناصرية من ضياء حقيقى وقابل للاستهداء، وبخاصة بعد ثورة مصر الأخيرة التى أعادت التوكيد على الحريات فى كل مستوياتها.

(١٠)

وإذا كانت الفترات الماضية قد نظرت إلى الناصرية على أنها جزء من الماضى فحسب، فإن الفترة القادمة ستكسب الكثير إذا ما استلهمت من الناصرية قدرتها على التحدى والاستجابة، وعندئذ سوف يدرك السياسيون ما أدركه المؤرخون من حقيقة الدور العظيم الذى لعبه ضياء الدين داود قبل غيره فى استبقاء شعلة الناصرية مضيئة بنبل ووفاء.

الفصل الثانى عشر

الدكتور صوفى أبو طالب

أول رجل حاول تخليص مصر من مبارك!!

(١)

قد يبدو هذا العنوان غريبا بعض الشىء، وقد يبدو مباشرًا بأكثر مما تحتمله كتابة تاريخية، لكن الأمر يتطلب بعض الهدوء ونحن نتأمل وقائع واضحة ومعلنة سمح مبارك نفسه بأن يتم تداولها دون أن يبذل جهده فى محاربتها ووأدها.

لن نتناول فى هذه الدراسة كل الجهود التى صبت فى هذا الاتجاه لكننا ستتناول أمثلة ناطقة بمدى عجز المحاولات عن أن تحقق نجاحًا.. لأن القطار كان قد مضى فى سبيله.

(٢)

كان الدكتور صوفى واحدًا من أساتذة القانون البارزين الذين لم يعملوا بالسياسة إلا بعد أن اكتملت شخصيتهم العلمية وقد بدأ رحلته مع المناصب البارزة نائبا لرئيس جامعة القاهرة، فرئيسا للجامعة، فرئيسًا لمجلس الشعب فى أكتوبر ١٩٧٨ دون المرور بالمناصب الوزارية.

وقدر له أن يكون هو رئيس مجلس الشعب عند اغتيال الرئيس السادات، وهكذا أصبح بمقتضى الدستور رئيسا مؤقتا للجمهورية فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ وحتى تم اختيار مبارك رئيسا للجمهورية.

كانت النخبة المحيطة بالرئيس مبارك تدرك أنه يحترم صوفى أبو طالب لكنه لايحبه... ثم اكتشفوا بعد الزمن أنه ربما جاهر بأنه لايحبه، وقد كان السبب فى هذا على ما يعتقد كثيرون أن صوفى أبوطالب (عقب اغتيال السادات) رأى بحاسة الأستاذية أن من الخير لبلاده أن تتجنب رياسة حسنى مبارك فمال على وزير الدفاع المشير أبو غزالة وهو الذى يملك مفاتيح القوة فى يده فى ذلك الوقت ملوحا له بأن يكون هو الرئيس.. لكن أبو غزالة لم يكن مستعدًّا بما فيه الكفاية، وجاءت إجابته سريعة بأنه مع الشرعية، أى مع تولى حسنى مبارك الرياسة.

(٣)

ظل صوفى أبو طالب فى منصبه بحكم أنه كان من الصعب أن يتم تغييره فى التو واللحظة، لكن دهاء حسنى مبارك استغل طيبة فؤاد محيى الدين ودفعه إلى الخلاف العلنى مع صوفى أبو طالب فى القصة المعروفة بمعركة الكباب والكفتة، وهى قصة كوميدية من قصص عهد مبارك المبكرة.

وجاء أحمد الجارالله رئيس تحرير السياسة الكويتية ليسأل مبارك عما تردد من توقعات لتغيير رجال الصف الأول ذاكرًا فؤاد محيى الدين وصوفى أبو طالب بالتحديد، وجاءت إجابة حسنى مبارك حاسمة وموحية رغم أنها بدت مراوغة، فقد قال: إن فؤاد محيى الدين يؤدى واجبه على أكمل وجه وإنه هو المسؤول عن اختياره، أما صوفى أبو طالب فرجل منتخب!

قال مبارك هذا وكأن رئيس مجلس الشعب يأتى بالانتخاب لا بالاختيار... وهكذا فهم الناس أن أيام صوفى باتت معدودة، وهكذا خرج صوفى أبو طالب من منصبه فى أول عام من حكم مبارك.

(٤)

ومع هذا فإن حسنى مبارك كان من الدهاء بحيث أوحى فى إحدى دورات مجلس الشورى أن صوفى أبو طالب قد يكون مرشحا لرياسة مجلس الشورى.. وهو ما لم يحدث بالطبع.

ومع هذا فإن الذين يدرسون التاريخ من زاوية التكريم والبروتوكول يلاحظون بسهولة

أن صوفى أبو طالب لم يكرم لا بما فيه الكفاية ولا بأدنى درجات التكريم عن الفترة التى كان فيها رئيسا للجمهورية، وقد كان من حقه أن ينال أرفع قلادات الدولة بحيث يصبح سابقا فى البروتوكول على كل رؤساء الوزارة ورؤساء البرلمان، لكن هذا لم يحدث..

بل إن الأدهى والأمر هو ما رواه لى أحد علمائنا الكبار الذى فاز بجائزة الدولة التقديرية فى العام الذى فاز فيه صوفى أبو طالب، فلما قابل الرئيس وكان له عليه دلال مما جعله يعاتبه على أنه لم يمنحه ما يستحق من وسام أرفع لأنه كان يحمل أوسمة سابقة، فأسر له الرئيس أنه لم يفعل ذلك لأنه لم يكن يريد أن يجامل زميله فى الجائزة.. أى صوفى أبو طالب..

(٤)

وهكذا عاش صوفى أبو طالب ومات من دون التكريم المستحق لرئيس جمهورية مؤقت أمين ونزيه لم يطمع فيما صار إليه، وحتى ندرك مدى نزاهة صوفى فى هذا الموقف فلنا أن نتصور مجرد تصور ما كانت عليه الحال لو كان رفعت المحجوب هو الذى وصل إلى هذا الموقع.. يقول العارفون: إن رفعت المحجوب كان مستعدًّا أن يضحى بنصف الشعب المصرى من أجل الإبقاء على هذا الكرسى فى حوزته.. ويقول آخرون: إن الدكتور أحمد فتحى سرور كان بوسعه أن يؤدى دورًا أفضل لنظام مبارك فى أواخر أيامه لو أنه تنازل عن حقه المتوقع فى خلافة مبارك .. لكن هذا الفرض يحتاج إلى دراسات مطولة لم تتح مفرداتها بما فيه الكفاية.

■ ■ ■

الفصل الثالث عشر

برلمان مبارك بين رئيسين

(١)

دار الحوار بينى وبين أستاذى ذات يوم حول الفارق بين شخصيتى اثنين متعاقبين من رؤساء البرلمان المصرى، وكان أستاذى يعتقد أن أولهما أقدر من خلفه، على حين كنت أعتقد أن الخلف أقدر وأفضل من سلفه بكثير.

قال أستاذى: إنك تحس من كلام الأول بهيكل عظمى لحديثه أو دفاعه.

قلت: ولكنك إذا تأملت كلام الثانى بعمق لوجدت له هيكلا عقليا واضحا، ولكنه بارع فى إخفائه.

قال: حتى هذه الخاصية لو وافقتك عليها فإنها تجعل كفة الأول أكثر رجحانا.

قلت: إن الأولى فى كلام السياسيين ألا يدرك مستمعوهم الهيكل من مجرد حديثهم.

قال: ولكن هذا ربما أضر بالتوجهات.

قلت: لايضر التوجهات إلا الخطوط العريضة.

(٢)

قال أستاذى: وكيف يسير الناس إذا لم يدركوا خطوطا عريضة يسيرون فيها؟

قلت: وهل فى المجال الجوى خطوط أم لا؟

قال: بل فيه بالطبع.

قلت: إنى أفضل أن تكون الخطوط العريضة فى حديث السياسة كتلك التى فى المجال الجوى مرسومة لكنها غير معلنة على نحو قاطع وصارم ومخيف يجعل الناس يخشون السير والمبادرة.

قال: ربما وافقتك فى هذه الجزئية... ولكن الأول يعطى لحديثه طابعا أقرب إلى أن يكون مهابة.

قلت: بل يعطيه نفورا.

قال: ولكنه يدفع الناس إلى التصفيق لكل جملة يقولها فى حماسة.

قلت: ويقف الأمر عند هذا الحد، فإذا جاء التصويت صوتوا فى الاتجاه الآخر.

قال: أويدرك الثانى هذا المعنى؟

قلت: يدركه لكنه لايزال حريصا على أن يتظاهر بأنه لايدركه.

قال: ولماذا؟

قلت: هذا شأن السياسيين فى البلاد النامية لايعمرون إلا إذا تظاهروا بأنهم لا يفهمون فى السياسة.

قال: أهذا منطق نجاح؟

قلت: بل هو منطق استمرار.

قال: وما الفائدة؟

قلت: ألست أنت الذى علمتنى أنه لا ينجح إلا النجاح؟

قال: بلى، ولكن ما العلاقة؟

قلت: غاية ما يقصد السياسى فى مثل هذا الموقع أن يستمر أكثر من غيره.

(٣)

قال أستاذى: ولكن هناك طريقا آخر للنجاح.

قلت: تقصد تحقيق الذات.

قال: بل أقصد إثبات البصمة وكفى.

(٤)

قلت: وهم يعرفون هذا ولهذا فإنهم لا يطلبون الاستمرار إلا كى يطيلوا الفرصة التى يثبتون فيها بصمتهم.

قال: أفكان الأول واعيا لمثل هذا الذى تتحدث عنه؟

قلت: كان سيد الواعين ولكن تصلب أفكاره لم يمكنه مما تمكن منه الثانى بفضل مرونة أفكاره.

قال: أفتظن أن لتخصصهما العلمى شأنًا فى هذا؟

قلت: لو كان الأمر كذلك لكان العكس هو الصحيح فتخصص الأول فى الاقتصاد بما فيه من دينامية، وتخصص الثانى فى القانون الجنائى، وثوابته أكثر من متغيراته.

قال: فما تظن السبب فى هذا الفارق الواضح؟

قلت: فى الهواية.

قال: وكيف كان كذلك؟

قلت: كان الأول يهوى الخطابة، وكان الثانى، ولايزال، يهوى التمثيل.

قال: أفأدركت هذا من معرفة تاريخهما قبل أن تحكم على طبعهما، أم توقعته من دراستك لسلوكهما؟

(٥)

وأردف أستاذى بحب شديد يقول: أم أنك - وهذا هو الغالب - حدسته من تصرفاتهما ثم تأكدت منه بدراسة حياتهما؟

قلت: ربما لم أدرس هذا التاريخ بعد.

قال: وربما أنك لست بحاجة إلى دراسته.

قلت: لماذا؟

قال: لأن الهوايتين اللتين أشرت إليهما ظاهرتان على الرجلين بدرجة واضحة لا تحتاج إلى تأكيد، ولكن قل لى هل وصلنا إلى عصر التمثيل؟

قلت: لا تنس أن الثانى يحب الخطابة هو الآخر حبا جما ولكنه إذا خطب تمثل شخصية سياسية مشهورة وأدى خطابه على نحو ما كان صاحبها يؤدى فكأنه يمثل.. بل كأنه يؤدى دورًا بطريقة كلاسيكية.

قال: أفمتأكد أنت من هذا؟

قلت: تأكدى من اسمى ونفسى.

(٦)

قال: كنت أحس بشىء من هذا ولكنى لم أجزم به لأنى لم أكن أعرف ذلك الذى يقلده ولو عرفته لأدركت الحقيقة.

قلت: ولكنى عرفته.

قال: أحقا يظهر هذا القدر من التشابه فى طريقة التمثيل بين الرجلين؟

قلت: إن الثانى لايزال يقنعنا بأنه قادر على أداء ما كان سلفه القديم يؤديه.

قال: وما سعادته بهذا؟

قلت: إنما هو نموذج يؤديه ويوفر عليه رسم ملامح جديدة.

قال: ولكن رسم الملامح الجديدة يحسب له.

قلت: ويحسب عليه.

قال: كيف يحسب عليه؟

قلت: يطالبه بعض الناس بالتزام الملامح فيصبح أسيرا.

قال: وهل يكون الحل باللجوء إلى تقمص أداء شخصية قديمة؟

قلت: إن التقمص يعفينا من الالتزام، كما أن التمثيل يعفينا من الحقيقة.

قال: ولكننا نحتاج إلى كل من الالتزام والحقيقة أشد ما يكون الاحتياج.

قلت: والسياسى الناجح يأخذ من الالتزام والحقيقة أضعاف ما يعطى منها.

(٧)

قال: تقصد أنه يوظفهما من أجل أهدافه ولا يوظف أداءه من أجلهما؟

قلت: هذا هو بعض ما يفعل.

قال: أوبقى شىء؟

قلت: بقيت الحقيقة.

قال: فماذا يفعل فى بقية وقته؟

قلت: يتظاهر بالبحث عنها.

قال: أيجد من المبررات ما يضيع به الوقت فى مثل هذا البحث المتواصل؟

قلت: إنه يخفيها ليظهرها، ثم يخفيها ليظهرها، ثم يظهرها ليخفيها.. وهكذا.

قال: وما جدوى هذا كله؟

قلت: تشتيت الانتباه.

قال: أوهذا هدف؟

قلت: هو أهم أهداف السياسيين.

قال: عن وعى؟

قلت: بل عن فطرة.

الفصل الرابع عشر

أحمد ماهر

(١)

كان أحمد ماهر سابع (وآخر) وزير للخارجية أتيح لى أن أعرفه عن قرب. وقد كان فى رأيى المتواضع واحدًا من أفضل الدبلوماسيين المصريين، كما كان واحدًا من أفضل وزراء الخارجية كذلك، بدأ حياته فى السلك الدبلوماسى وانتقل من السلك الدبلوماسى إلى موقع متميز ومتفرد فى مؤسسة الرياسة ومستشارية الأمن القومى فى ظرف متميز ومتفرد فى فترة حرب أكتوبر ٧٣، ثم عاد إلى السلك الدبلوماسى مرة أخرى وقد تزودت ثقافته بأبعاد الأمن القومى فى مستوياتها العليا.

عمل أحمد ماهر سفيرًا فى موسكو كما عمل سفيرًا فى واشنطن وفى الموقعين كان هو هو، ومع أن علاقاته هنا وهناك نمت إلى مواقع متقدمة إنسانيا ودبلوماسيا فإنه ظل على نحو ما عاش حياته كلها متفانيًا فى أداء رسالته، إذ كان يؤمن أن الدبلوماسية رسالة فى المقام الأول والأخير.

(٢)

كان أحمد ماهر ذكيا، أبيا، حكيما، مجاملا، صبورًا، لماحا، وعاش حياته كلها كريما على نفسه، وكان عارفًا بقيمة الإنسان الحقيقية فى الحياة وبعد الممات ولهذا كان حريصا على واجبه وعلى أخلاقه كما كان حريصا بالقدر ذاته على صورته وعلى آثاره.

كان أحمد ماهر أكثر من عرفت من أبناء جيله عناية بالقراءة، كان يحب القراءة لذات القراءة،

ولم يكن يؤجل شراء كتاب يحب أن يطالعه، ولهذا كان دائما ما يحمل الكتب من هنا وهناك وهنالك، وكان يدرك أن القراءة رافد جوهرى من روافد المعرفة والشخصية وأنها لاتتطلب من القارئ أن يظهر تأثره بها على التو ..

ومن العجيب أن واحدًا ممن صوروا أنفسهم من أهل الفكر تعجب لى من ألا يظهر بالقدر الكافى أثر ما يقرؤه أحمد ماهر على ما يقوله ..

وكان ردى بعد دقائق من التفكير: إنه وصل إلى المرحلة التى تؤثر فيها مطالعاته فى سلوكه بأكثر مما تؤثر فى لسانه.

قال محدثى: لا أفهم.

فلما حان الأجل وتوفى أحمد ماهر ورثاه الناعون، هاتفنى الرجل وقال: لقد فهمت الآن ما كنت تقول، لكنى لم أر فى زماننا الذى نعيشه من كان يسلك سلوك أحمد ماهر فى نبله وخلقه دون أى ادعاء.

قلت لمحدثى: لقد كان هكذا دوما حتى فى خصوماته، وما رأيت وزيرًا ترحم عليه من اختلفوا معه.

(٢)

أتاح لى الحظ أن أعرف أحمد ماهر عن قرب فى أكثر من موقف، وجاءت وفاته المفاجئة فى وقت كنت فيه بسبب المرض عاجزًا عن الكتابة والرثاء، ومرت الأيام وأنا مؤمن أن الفرصة سوف تأتينى للتعبير عما أشعر به تجاهه من تقدير.

ومن العجيب أن الفرصة جاءت على غير توقع، فقد كتبت مقالًا عن الوزيرة فايزة أبو النجا وتصديها لوزير فاسد من وزراء الاقتصاد وعن دورها فى اختيار وزراء الخارجية المعاصرين، وأشرت فى مطلع المقال إلى عملها وزيرة للدولة الخارجية فى الفترة التى كان أحمد ماهر فيها وزيرًا للخارجية، وكانت المعانى وظلال المعانى فى مقالى واضحة وضوح الشمس، لكن بعض القريبين من أحمد ماهر ظنوا أنى أتحدث عنه بالعبارات التى تحدثت بها عن الوزير الاقتصادى الفاسد، مع أنى لا أتصور أحدًا يدور بخاطره أنى لا أعرف قدر أحمد ماهر ونزاهته وكفايته.

أما وقد حدث أن أحدًا ظن هذا الظن ولو للحظه عابرة فإنى أحب أن أعبر بكل وضوح عن تقديرى لأحمد ماهر ولسيرة أحمد ماهر ولذكرى أحمد ماهر.

لقد أنصفت ذكرى أحمد ماهر باشا الجد فى أكثر من مقال ودراسة، وأنصفت ذكرى شقيقه على ماهر باشا بكتاب مازلت أفخر به كما يفخر به كل عربى.

وهأنذا أنصف أحمد ماهر الحفيد الذى كنت أحبه ومازلت أحبه، كما أنى مازلت أعتقد فيه ما كان يعتقده العرب القدامى حين كان يصفون الإنسان المتفرد فيقولون عنه: إنه ليس له أخ ولا نظير.

■ ■ ■

الباب الثالث

فى أبراج التاريخ والسياسة

الفصل الخامس عشر

الدكتور عبد العظيم رمضان ومكانته فى تاريخ أمته

(١)

اجتمعت فى الدكتور عبد العظيم رمضان مجموعة من الصفات، أهلته لأن يحتل مكانًا مميزًا فى تاريخ وطنه، كما احتل مكانة متميزة بين مؤرخى هذا الوطن.

كان مؤرخًا موهوبًا، رزق القدرة على الوصول إلى لب الحقيقة من بين الوقائع والروايات، وكانت أدواته فى هذا الوصول علمًا غزيرًا، وفكرًا نافذًا إلى دلالة الوقائع، ومنهجًا قادرًا على الفحص والدرس والمقارنة والاستنتاج.

وكان قبل هذا باحثًا علميًّا متميزًا، قادرًا على الوصول إلى المجال الذى يمكن له أن يجد فيه الحقيقة، وقادرًا على الذود عن صواب استنتاجاته وعن صواب الطريق الذى سلكه من أجلها.

وكان كاتبًا قادرًا على الإقناع بما يريد أن يقنع به، والهجوم على ما يريد أن يهاجمه والانتصار لما يؤمن به ونقض ما يخالفه وربما تسفيهه.

كما كان مع هذا مثقفًا واعيًا لدور التيارات المتلاطمة فى الحياة الفكرية والعقلية، ولطبيعة الصراع الاجتماعى والسياسى.

وبهذه الصفات الأربع انطلق عبد العظيم رمضان يخوض معاركه فى ثقة، ويعرض آراءه فى اعتزاز، ويدافع عن وجهات نظره بإصرار، ويقدم أحكامًا قاطعة من دون توسط أو تحرز أو تهيب أو إمساك للعصا من غير أطرافها.

(٢)

كانت حياته العامة وحياته العلمية، على حد سواء، ملحمة من الكفاح المتصل فى سبيل العلم والمجد، ولم يتح لأحد فى جيله أن يكافح كفاحه، ولا أن ينجح نجاحه، ولم يتح لأحد فى جيله كل هذا الصعود المتصل الواثق، وحين بدت حياته فى الظاهر وقد توقفت عن الصعود الرسمى فإنه كان قد استبدل بالصعود الرسمى صعودًا فى عالم الحقيقة، ودنيا العلم والفكر، حتى إنه لم يظهر أى نوع من التبرم حين أبعد عن الجامعة، وحين منع مقاله الأسبوعى من النشر فى إحدى الجرائد الكبرى، وذلك على الرغم من أن الأزمة التى تسببت فى كل هذا لم تكن تستدعى كل هذه التطورات التى قابلها عبد العظيم رمضان باستخفاف شديد لم يعرف فى أحد من معاصريه فى ذلك الوقت، وكان لاستخفافه بالمؤامرة عليه أثر إيجابى بالغ القوة إذ لم يحس أحد بأن هذا قد حدث له!!

وقد رزق الدكتور عبد العظيم رمضان حظوظًا عظمى من مميزات التكوين العلمى والفكرى وتنامت هذه الحظوظ مع كل خطوات حياته، فرزق من خلال التعليم الأزهرى المبكر قدرًا كبيرًا من الصقل العقلى للقدرات الفطرية التى كان يتمتع بها، وعرف أن هناك خطأ وصوابا، وأن القاعدة العلمية هى التى تحكم الخطأ والصواب، وأن الهوى وحده لا يكفى لتبرير موقف أو رأى، وهكذا جاءت كتاباته فيها بعد حافلة بالأسانيد والتأصيل المنطقى، والبعد عن الشطط، وتجنب التفسيرات التى لا يمكن الدفاع عنها، والأهم من هذا كله أنه نجا مما وقع فيه كثير من معاصريه من الإسراف فى الأدلجة، أو الاعتماد على نظرية المؤامرة، أو حتى التفسير المادى المطلق للتاريخ.

(٣)

انتقل عبد العظيم رمضان إلى العمل موظفًا صغيرًا فى الحياة المدنية، وفى هذه الحياة عرف الشعب معرفة أعمق من المعرفة التى تتاح لأبناء الشعب عن أنفسهم مهما ظنوا هذه الأنفس معجونة بالفقر والكفاح والمعاناة.

ثم أتيح له أن يواصل دراساته فى التعليم العام معتمدًا على نفسه، فتعلم أن يعلم نفسه ويثقفها على نحو قادر وسريع، وأن يجتاز المقررات بسرعة ليحصل منها على ما يريد من مسوغات التأهل لمرحلة تالية.

ثم أتيح له أن يواصل تعليمه الجامعى من خارج أسوار الجامعة فكان شغفه بالجامعة ينتصر لغيابه عن مدرجاتها، وكان شغفه بالعلم قد وصل إلى الحد الذى أهله لأن يكون باحثًا.

ثم واصل عبد العظيم رمضان دراساته العليا متنقلًا بين القاعات والمكتبات والوثائق، وقدر له أن يدرس تاريخ الحركة الوطنية المصرية فى عصر كان يهيأ لأقطابه وكان يهيئون للشعب أن الحركة الوطنية شىء من ممتلكاتهم هم وحدهم، فإذا بعبد العظيم رمضان بفضل مجموعة من أساتذته من طراز محمد أنيس، وأحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى يكتشف بابا سحريًا إلى فهم هذه الحركة، ووصفها على نحو لم يتح لغيره من المؤرخين السابقين عليه.

(٤)

خرج عبد العظيم رمضان إلى الحياة الفكرية متسلحًا بالعلم والفهم والفكر والمنهج، لكنه مع هذا كان جادًّا فى ردود أفعاله على نحو ما كان جادًّا فى عروضه، وكان لا يمانع فى الإسراع إلى فتح باب الخصام على نحو ما كان لا يمانع فى الاندفاع إلى إطلاق الأحكام، وكان قادرًا على الجدل والهجوم وإعادة الهجوم، وكان يفعل هذا كله بتلقائية غريبة، وبقدرة متناهية على الانتصار لما يراه صوابا، ومع أن بعض أحكامه كانت تبتعد عن الحقيقة فقد كان معذورا فى ابتعاده عما لم يعرفه، وعما لم يعرف خلفياته مما يستحيل أن يوضع على ورق، ولا أظننى اختلفت مع أحد من أساتذتنا المؤرخين بأكثر مما اختلفت مع بعض أحكامه، لكنى كنت أدرك بكل صدق أنه فيما بينه وبين نفسه كان مصيبًا فيما وصل إليه بأدواته التى كان يعول عليها، وقد كان مجتهدًا كبيرًا، وكبيرًا جدًّا . كما أنه كان إنسانا عظيما، وعظيما جدًّا.

■ ■ ■

الفصل السادس عشر

عبد العظيم رمضان وحسنى مبارك

(١)

سئلت ذات مرة عن أكثر الكتاب إفادة لعصر مبارك، فقلت بلا تردد: عبد العظيم رمضان، فتقبل بعض السائلين الإجابة بالموافقة، وتقبل قليل منهم الإجابة بالفتور تعبيرا عن التحفظ، فتعمدت أن أسأل عن إجاباتهم فتوقفوا عن أن يذكروا اسما محددا.

وسئلت عقب السؤال الأول عن أكثر الكتاب عذابا وظلما فى عصر مبارك، فقلت بلا تردد أيضا: عبد العظيم رمضان، وتقبل معظم المستمعين والسائلين الإجابة بقدر من الاندهاش، وإن أبدى أحدهم إعجابه الشديد من هذه القدرة على الحكم على الأمور بحقائقها على الرغم من ظاهرها المختلف تماما.

وربما لم يكن فى وسع أحد أن يتحدث عن عبد العظيم رمضان حديثا منصفا فى عهد مبارك على الرغم من كل الإنصاف الذى أنجزه عبد العظيم رمضان لعصر مبارك ، وليس من قبيل المصادفة أن المكتبة العربية تحوى كتابا ضخما من أربعة عشر جزءا عنوانه: «الصراع السياسى والاجتماعى فى عصر مبارك».

(٢)

وقد كان السبب فى هذا عجيبا جدا، لكنه لا يخرج عن طبائع النفس البشرية، ذلك أن الحب من طرف واحد، حب غير مكتمل، كما أن تقدير الهدايا يتوقف على قدرة المهدى إليه على تقييم قدرها.

ومع هذا فإن الملاحظة الدقيقة تكشف لنا بوضوح عن أن كتاب الدكتور عبد العظيم

رمضان عن «الصراع الاجتماعى فى عصر السادات»، وهو كتاب ضخم يعبر بوضوح عن مدى الاتقان فى كتب عبد العظيم رمضان فى ذلك الوقت .

أما كتبه عن عصر مبارك فمع أنها ابتدأت بالإتقان والتقسيم والتبويب، فإنها آثرت أن تمضى مع تعاقب الزمن بطريقة تذكر بالحوليات، وإن لم تكن حوليات بالطبع. لكنها فى نظر كثيرين من أهل الصحافة ليست إلا تطوير الأكاديميين «برطانتهم المعهودة» لفكرة الحوليات مع حرص مواز على مواكبة الأحداث السياسية والاجتماعية بالتأصيل والتنظير و التحليل والنقد.

(٣)

على أن الأهم من ذلك أن اسم حسنى مبارك لم يجد دفاعا تاريخيا مجيدا عن سياساته وتوجهاته على نحو ما وجده فى كتابات عبد العظيم رمضان ، ويبدو لى أن عبد العظيم رمضان كان فى المقام الأول فى انتهاجه هذا الدفاع فنانا حريصا على أن تكون صورته التى يرسمها للزبون الجالس بين يديه أفضل من الصورة التى يرسمها غيره للزبون الآخر الذى جلس أمام الفنان الآخر (أو بين يديه)، أو فلنقل بصراحة: إن عبد العظيم رمضان لم يكن يهمه فى المقام الأول أن يكون حسنى مبارك أفضل من هتلر، لكن الذى كان يهمه هو أن يكون دفاعه هو عن مبارك وتصويره له أفضل من دفاع جوبلز عن هتلر، وليس مهما أن يكون مبارك أفضل من هتلر!

وبالطبع فإن عبد العظيم رمضان لم يكن فيما فعله فى عهد مبارك واعيا للقضية على هذا النحو المجرد الواضح، لكنه كان مدفوعا إلى هذا بالفطرة، فطرة الكاتب أو العالم أو المؤرخ المشرئب إلى العظمة المتاحة له فى أقرب صورة.

(٤)

بيد أن من سوء حظ التاريخ (وليس سوء حظ مبارك.. أو سوء حظ عبد العظيم رمضان) أن مبارك الذى كان يعرف قدر الفكر و التاريخ والدفاع.. لم يكن يقدر الفكر ولا التاريخ والدفاع ولا القضية نفسها، ذلك أن هناك فرقا بين التقدير كتقييم معرفي، وبين التقدير كسلوك تنفيذى.

كان مبارك يسير بطاقة الدفع الذاتى فى عقليات معاونيه وسياسييه، وهى طاقة دفع كانت بحاجة إلى مثل هذا الوقود الذى كان عبد العظيم رمضان يصنعه ويستخرجه باجتهاد شديد،

وهكذا فإن أسامة الباز وعمرو موسى وغيرهما من قبيل مصطفى الفقى، أحمد ماهر، وأحمد أبو الغيط، وعبد الرؤوف الريدى، وعلى ماهر ، وماجد عبد الفتاح ، وسليمان عواد ، كانوا يستأنسون بهذا الوقود المتاح على يد عبد العظيم رمضان، ويستدفئون به على الرغم من حب مبارك للصقيع الفكرى، وتفضيله على ما سواه.

(٥)

ومن إحقاق الحق أن نقول فى رمز ما لا نستطيع قوله فى وضوح وصراحة، وهو أن عبد العظيم رمضان قد أجهد أعدى أعداء «رياسة» مبارك، وعن عمد لا نقول: أعدى أعداء «شخصية» مبارك.. وعن عمد أيضا لا نقول: أعدى أعداء «سياسة» مبارك.

ومن إحقاق الحق أيضا أن نذكر أن هذا الذى أرهقه عبد العظيم رمضان بدفاعه عن رياسة مبارك لم يدخر وسعا فى حرب عبد العظيم رمضان بكل الوسائل الذكية، وغير الذكية، والأخلاقية، وغير الأخلاقية، وإلى الحد الذى لم يمانع فيه أن يتقرب من ناشر عبد العظيم رمضان بما يبدى تمجيده له بينما كان يدس له السم الصريح.

ومن الطريف أنه نجح فى أن يؤذى الناشر الذى تبنى أعمال عبد العظيم رمضان، بما لم يدركه هذا الناشر إلا بعد فوات الأوان، ثم إنه لم يدرك أن نشره لأعمال رمضان كان السبب فى هذا التمجيد الذى لقيه على يد أعدى أعداء رياسة مبارك ممزوجا بالسم الذى آذاه به.

وبرغم هذا كله فقد كان أبسط مثقف مصرى يدرك هذه الحقائق بوضوح شديد، على حين كان الأبطال جميعا معصوبى الأعين، وسبحان الله الذى هدى المصريين لأن يقولوا عن أنفسهم فيما يتعلق بالسياسة:

إن عامتهم أذكى من مثقفيهم..

وإن قراءهم أذكى من كتابهم..

وإن صناعهم أذكى من مؤرخيهم..

وإن الأميين منهم أذكى من مفكريهم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل السابع عشر

هكذا فقد مبارك أخلص مؤرخيه!

(١)

حين وقعت حادثة أديس أبابا التى تعرض فيها مبارك للاغتيال تحدث واحد من زملائى فى لقاء الدفعة عن أهمية وجود النائب وثنى آخر بضرورة أن يفاتح أحدهم الرئيس فى هذا، وقال الثالث إن الذى يفاتح الرئيس فى مثل هذا الموضوع سيكسب عداوته للأبد، وربما يفقد حياته ذلك أنه يذكر الرئيس بما لا يحب أن يتذكره أبدًا، وتحفظ رابع على الثالث قائلًا: إن زخم الاحتفالات لن يسمح للرئيس بالتفكير فى عداء من يقوم بهذا الدور.

وكأننا كنا نقرأ الغيب فى كتاب مفتوح، دُعيت أفواج للقاء الرئيس عقب سلامته، وظلت الوفود تترى طيلة ثلاثة أسابيع وكان أخلص مؤرخى مبارك هو الرجل الشجاع الذى صارح الرئيس بأهمية اختيار نائب، بل إنه قال ما معناه: إن هذا الحاديث يعلمنا أن نتذكر ضرورة حسم الموضوع الحيوى المتعلق بمستقبل أمة.. ومرت الاحتفالية بسلام ولكن واحدا من كاردينالات القصور.. كان لا يرتاح إلى المكانة التى احتلها «المؤرخ» عند مبارك.. فوجئ فى حفل إحدى السفارات بفرصة ذهبية يقدمها إليه كاهن كبير كان عدوًّا طبيعيًّا لمبارك، وقد رمى هذا الكاهن بفكرته الشريرة فى حجر الكاردينال (وهما فى حفل السفارة البريطانية) بلا مبالاة كان يجيد التظاهر بها، وهى أن «المؤرخ» رجل يفتقد اللياقة لأنه أعلن مثل هذه الفكرة على الملإ بهذا الأسلوب!! وكان الأولى به أن يدخرها إلى لقاء ثنائى مع الرئيس وظن الكاهن أنه قضى تمامًا على المؤرخ العظيم من خلال استغلال هذا الموقف الذى يجعل «المؤرخ» غير أهل لمحبة الرئيس وانفراده به، لكن الكاردينال كان يعرف بالطبع أن طبيعة مبارك تسمح بالتجاوز عن

الموقف الواحد إذا جاء فى سياقه، وإذا صدر عمن عرف عنهم الإخلاص، وهكذا كان لابد من تصوير الأمر فى صورة أبشع من قبيل أن «المؤرخ» يفاخر بموقفه هذا وبشجاعته فيه.

(٢)

والواقع أن «المؤرخ» لم يكن وهو الإنسان النبيل يلجأ إلى مثل هذه الثرثرة، بل كان يقول دائمًا إنه يكفيه أنه عرض فكرته فى وضوح وصراحة، كما كان يقول بصدق حقيقى إنه ممتن للعصر الذى مكنه من أن يعرض أفكاره بشجاعة دون أن يصيبه أذى.

وهكذا لجأ الكاردينال إلى حيلة أخرى كانت سهلة التنفيذ إلى أبعد حد، فقد كانت إحدى القريبات من «المؤرخ» حريصة على التعرف إلى أكبر عدد من أهل الثقافة والفكر لتعرفهم ويعرفوها وكانت فى حرصها تلجأ إلى عرض رؤيتها هى لمواقف «المؤرخ» وبالطبع فإن هذا العرض لم يكن هو نفسه رؤية «المؤرخ» لكنه كان كفيلا بأن يحسب عليه.

وبسهولة شديدة تم تشجيع السيدة القريبة من «المؤرخ» للتحدث عن شجاعته فى مقابل جبن الآخرين، وعن جرأته فى مقابل حرصهم على التوازن، وهكذا تم استدراجها بسهولة وتلقائية إلى الحديث عن أن «المؤرخ» وقف من الرئيس مبارك موقف الأسد الشجاع على الرغم من تنبيه الآخرين ممن يكبرونه، وعلى الرغم من نصيحتهم له بأن هذا الذى ينوى فعله لا يتفق مع الذوق واللياقة!

ومن سوء الحظ أن السيدة لم تقف عند أى حد فى هذا الدفاع عن وجهة نظرها.. ولم يكن أعداء «المؤرخ» والحاقدون عليه فى حاجة إلى أكثر من شريط تسجيل واحد.. ولم يكن حسنى مبارك هو الآخر بحاجة إلى دليل آخر كى يشير بيده إشارة دالة على ضيقه بالرجل، وكان الكاردينال الذى يترجم الإشارات إلى قرارات قادرًا على أن يبدأ دوره على الفور.

(٣)

هكذا صدرت الأوامر الشفوية لأحد مسؤولى جريدة «الأهرام» بالتوقف عن نشر مقالات «المؤرخ»، وكانت مقالاته فى ذلك الوقت بالذات مصدر إعجاب زملائه من كبار أعضاء

هيئات التدريس به، لأنه وقف موقفًا معارضًا لوزير التعليم العالى عندما أراد وضع حد لتواجد الأساتذة فى كلياتهم عند بلوغهم سن السبعين.

وفهم الأساتذة من منع مقالات المؤرخ فى «الأهرام» أنها رسالة ثقيلة من الدولة ضد أساتذة الجامعة، ووقوف صريح من الدولة و«الأهرام» ضد الأساتذة وضد محاميهم الذى هو «المؤرخ»، بينما لم يكن الأمر فى حقيقته إلا مصادفة، أو على أكثر تقدير تقاطع مصالح.

ومن الإنصاف أن نقول: إن «المؤرخ» كان حتى ذلك الوقت لا يزال بوجوده وثقله قادرًا على أن يجعل «الأهرام» يعيد النظر فى قرار منع نشر مقالاته بالتزامن مع مجلة «أكتوبر»، لكن الله هداه لأن يتوقف عن مثل هذه الخطوة التى كانت ستنقص من مجده فى الدفاع عن حقوق زملائه، وإنى لأذكر فى هذا الصدد أن أحد منافسى «المؤرخ» من زملائه كان دائم التعبير بكل الوسائل عن ضجره من مجد الرجل، فإذا به يقول فى تلك الأيام: «إن موقف «المؤرخ» فى هذه المعركة يغفر له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولا يزال هذا العالم الجليل على موقفه هذا حتى الآن.

(٤)

وكنت فى ذلك الوقت أعتقد أن الدولة خسرت كثيرًا من حجب مقال «المؤرخ» وأنها ستنتبه إلى هذه الخسارة لكن راعنى أن بعض رجال «الأهرام» كانوا يأخذون الأمر على أنه انتصار أهرامى ضد هذا العبقرى غير الأهرامى المفتون بنفسه، والمخلص لرئيسه إخلاصا لا حدود له دون أن يأخذ الثمن المناسب أو المتناسب مع ما أخذه رجل الأهرام القديم الذى كان لا يزال يتعطش إلى مكانة «المؤرخ»، وهكذا تكونت دراما إنسانية من نوع فريد لعب فيها ضد المؤرخ فريق غير متجانس ضم أقرب المقربات وأعدى الأعداء، فضلًا على الكاردينال وأعوانه.

هكذا نجحت خطة جهنمية بسهولة، وفقد مبارك أخلص مؤرخيه، ومضت الأحداث التاريخية فى سنوات مبارك الأخيرة وكأنها بلا روح لسبب واحد فقط، هو أن «المؤرخ» غاب بدون قصد عن مبارك.

ومن الحق أن نقرر ونكرر: إن مبارك لم يكن هو المستفيد من إبعاد «المؤرخ» عن «الأهرام»،

كذلك لم يكن الكاردينال الذى كان يعمل معه مستفيدًا بأى صورة إلا فى حدود نجاح لعبة عابرة فى مباراة من المباريات.

(٥)

لكن أسعد الناس بما حدث كان هو عدو مبارك الذى طالما تمنى أن يعود إلى مكانة الكاهن فى عصر مبارك أو حتى بعد عصر مبارك!! وكانت أمنيته هذه تدفعه بالفعل وتقوده بالمؤامرة إلى تحطيم كل من يتصور أنهم قد يصلون إلى ما كان له من مكانة.

ومما يؤسف له أن الإيحاء بخروج مبارك من عباءة «المؤرخ» وخروج «المؤرخ» من عباءة مبارك استمر ينمو فى أوساط الدولة حتى وصل إلى عدم التجديد للرجل فى عضوية الشورى، بينما كان مشرفا على الموت، وكان هو أولى أعضاء الشورى بالتجديد أدبيًا وإنسانيًا، لكن الشيطان الكاهن كان قد لعب دوره المحسوب بدقة بالغة عن طريق آخر.

وقال الشيطان لأصفيائه ذات مرة: هل رأيتم نهاية الرجل الذى دافع عن مبارك ربع قرن مجانًا؟ قال أحد الأصفياء: لقد نال كذا وكذا.

وقال الشيطان الأكبر: كل هذا فى رأيى لا يكفى ثمنا لمقال واحد من مقالات «الكهف».

وفى طريق العودة من صحبة الشيطان قال الصحفى لزميله الأكثر خبرة منه بالعقد الإنسانية: هل يجد «المؤرخ» من ينصفه؟

رد عليه صاحبه: ربما يجد من ينصفه، لكنه من المؤكد أنه لن يجد من يتحمس (أو تتحمس) لهذا الإنصاف!

وقد حدث هذا بالفعل.

■ ■ ■

الفصل الثامن عشر

الدكتور يونان لبيب رزق

(١)

كان الدكتور يونان لبيب رزق فى طليعة أبناء جيله من أساتذة التاريخ المصريين الذين عشقوا التاريخ، وعملوا من أجله منذ تخرجهم فى الجامعة، بل منذ وجودهم فى الجامعة، ليس سرًّا أن يونان وزملاءه لم يبدؤوا حياتهم الأكاديمية معيدين فى سلك الجامعة، وإنما عملوا فى خارج الجامعة، وانتسبوا إلى مدرسة أحمد عزت عبد الكريم، وأحمد عبد الرحيم مصطفى، وأخذوا يحفرون فى الصخور حتى نالوا ما يستحقون من شهادات علمية، ثم إذا الجامعة تفتح أبوابها لهذا الجيل فى مواقع متقدمة منها، وإذا هم بعد ذلك، بفضل تكوين هادئ، يثبتون أنفسهم فى المواقع التى احتلوها فى الأستاذية، والوكالة، والعمادة، ورئاسة القسم، وأمانة اللجان، وقد حدث هذا مع عبد العظيم رمضان، ورؤوف عباس، وعاصم الدسوقى، وقاسم عبده قاسم، ومحمد عبد الرحمن برج، بل مع معظم أفراد هذا الجيل المتميز.

كان هذا الجيل يجتمع مع أساتذته فى ندوة أسبوعية يستغنون بها عن عطلة نهاية الأسبوع، وعن سهرة نهاية الأسبوع، يستوعبون أعمال بعضهم البعض، ويُنتقدون ويُوجَّهون ثم يَنقدون ويُوجِّهون.

(٢)

ومن الإنصاف ليونان لبيب رزق أن نشير إلى كفاحه وسعادته بهذا الكفاح، فقد عمل فى التعليم الثانوى بعيدًا عن القاهرة، وظل فى الإسماعيلية أربع سنوات، لكنه مع هذا استأنف

عمله بدأب حتى اقترب من الجامعة، وحتى نال الدكتوراه بعد اثنى عشر عاما من تخرجه، وهو معدل متميز لمن كانوا فى خارج الجامعة، بل متميز أيضا لمن كانوا فى الجامعة.

وفى أثناء ذلك أتاح الزمن ليونان رزق صقل معلوماته، وشخصيته، وموهبته على حد سواء، وإذا بمعلوماته تتشعب لكنها لا تتوه منه، ولا تتوه به، وإذا شخصيته تزداد دماثة وهدوءا، وتخلو أيضا من الادعاء والتكلف، وإذا موهبته تصبح حصيلة للجمع بين أدب يجتهد، وعلم يتراكم، وفن كتابة يتطور مع الأيام ليصبح قريبا من وجدان الشعب بقدر ما هو قريب أيضا من أذهان المتخصصين.

وقد التقت فى تكوين شخصية يونان فى سنواته الأكاديمية عوامل متعددة تضافرت حتى أهلته لأستاذية حقة وممتدة.

(٣)

اختار له أستاذنا الكبير الدكتور أحمد عزت عبد الكريم البحث فى العلاقة السودانية ـ المصرية فى فترة الاحتلال، وجعل موضوع رسالته «السودان فى عهد الحكم الثنائى»، وأكسبته هذه الرسالة جلدا على معرفة تاريخ السودان المصرى، وعلى معرفة تاريخ مصر بالتالى، ومن الإنصاف أن نشير إلى أن يونان لبيب عمل فى فترة تسجيله للرسالة مدرسا فى البعثة التعليمية فى أم درمان، وهكذا كان العمل الوظيفى نفسه أداة ساعدت صاحبها، لا على البحث وحده، ولا على جمع المادة، وإنما على الإحساس بالروح، وأظن أن حب يونان لروح التاريخ قد نشأ فيه من ذلك الحين، وأنه حين أحس هذه الروح لم يفرط فيها منذ عرفها، وحتى فارقته الروح.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإنى أعتقد أنه لم يكن هنا سبب وراء علاقتنا غير هذا الحب الذى جمعنا دائما ولم يفرقنا أبدا.

(٤)

كان الدكتور يونان لبيب بعد حصوله على درجة الدكتوراه فى شوق طبيعى لأن يعمل فى الجامعة، ومع أنه انتدب ندبا كاملا لكلية الآداب فى جامعة عين شمس، حيث حصل على شهادته العليا، فإنه عمل بالمثل القائل بأن «عصفورا فى اليد خير من عشرة على الشجرة»،

وسرعان ما قبل وظيفة عضو فى هيئة التدريس بكلية البنات جامعة عين شمس حيث عاش حياته الأكاديمية كلها.

وفى هذه الكلية أتيح ليونان لبيب رزق أن يضيف البعد الثالث فى شخصيته (بعد بعدى التدريس والسودان)، ومن الطريف أن هذا البعد صادف أهله فى شخصية رجل دمث الخلق، هادئ النبرة، مجامل، لطيف المعشر، حريص على اللفظ، وحريص على المجاملة أيضا، وحريص قبل اللفظ والمجاملة على القفشة الذكية التى تتقبل من المحب ولا تتقبل من غيره.

هكذا عاش حياة أكاديمية تقصر تدريسه فى الصباح على الجنس اللطيف، لكنها تسمح له بفضل دأبه وإصراره أن يكون له تلاميذ رجال فى الدراسات العليا فى الماجستير والدكتوراه، يحصلون على شهاداتهم تحت إشرافه، بينما هو لا يعطى الليسانس إلا للبنات فقط بحكم قانون الكلية.

(٥)

ثم جاء البعد الرابع الذى لا ينتبه إليه كثيرون ممن نقدوا يونان فى الشهور الأخيرة وهاجموه، وممن نقدوه وهاجموه قبل ذلك، وقد تمثل هذا البعد فى ملازمة يونان للأستاذ الكبير حسن يوسف وكيل الديوان الملكى العتيد فى عهد الملك فاروق، وقد كان حسن يوسف ـ فى رأيى ـ هو الأستاذ الثانى فى حياة يونان، وهو الأستاذ الثانى الذى فاق فى تأثيره تأثير الأستاذ الأول لسبب مهم، وهو أن يونان كان قد بلغ مرحلة النضج التى تتعطش إلى سد الفراغ المعرفى والثقافى، وتجيد بحكم النضج الإفادة من الفرصة المتاحة لهذا.

وإذا أريد إنصاف يونان وإنصاف تاريخنا فلابد من الإشارة إلى حقيقة تأثير حسن يوسف فى شخصيته، وسلوكه، وتفكيره، بل فى تصحيح تفكيره وتوجهاته، بل فى رسم صورة جديدة للإنسانية كادت تتوارى فى العصر الذى نشأ فيه يونان.

(٦)

وفى النصف الثانى من السبعينيات حين كان من الواجب على كل أستاذ جامعى أن يبحث عن مورد رزق يكافئ به التطلعات الجديدة والنفقات المتزايدة، كان من حظ يونان أن تكون إعارته إلى مدينة فاس بالمغرب، حيث قضى أربع سنوات (١٩٧٧ ـ ١٩٨١) زادته صفاء فى

النفس، ونقاء فى الرؤية، كما زادته معرفة بالتاريخ العربي، وإلى ما ينمط العلاقات المصرية ـ المغربية، كما أطلعته على نمط التفكير المتأثر بالفرانكفونية، وهو الذى لم يعرف من قبل ذلك قبلة للبحث العلمى إلا فى لندن وما حولها، وما بلسانها.

وإذا هو يرى بعينى رأسه فى تلاميذه المغاربة لسانا يلعب بالأفكار على نحو ما تلعب اللغة، ويسرع إلى الاستنتاج، ويستجمل، ويستقبح بعيدا عن مدرسة الوثيقة، والأختام، والأضابير، وربما أن يونان لم يقتنع بتأثير هذه المدرسة الفرانكفونية العربية، لكنه استفاد من معايشتها سعة فى الأفق، وفهما أبعد وأعمق، وحبا أكثر لما نشأ عليه، وإن كان قد بدأ يعرف أنه ليس الصواب الوحيد.

وهكذا اكتملت فى شخصية يونان أبعاد خمسة كانت كفيلة له بأن يبدأ صعوده الواثق والهادئ فى الثمانينيات، وقد هيأت له علاقته بالدكتور بطرس بطرس غالى ما مثل البعد السادس فى نجاحه، وهو اتصاله بالخارجية المصرية، وعضويته فى لجنة الدفاع عن طابا (١٩٨٦ ـ ١٩٨٨)، وعضويته فى مؤتمر مدريد (١٩٩٠)، وعضويته فى المفاوضات المصرية ـ السودانية التى دارت حول حلايب (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣).

وهكذا ضم يونان إلى خبراته السابقة خبرة بالعلاقات الخارجية، والمفاوضات الدبلوماسية، وأصبح مؤهلا لأن يخدم بلاده بالوثيقة عند حاجتها إليها، كما خدم العلم من قبل.

(٧)

وبعد هذه الحياة الهادئة بدأ يونان يحصد تكريما وراء تكريم، كان التكريم لشخصه أحيانا، ولجيله أحيانا أخرى، وللوحدة الوطنية أحيانا ثالثة، وللحب العلمى أحيانا رابعة، وللصفاء النفسى أحيانا خامسة، لكن كل هذه الصفات كانت تجتمع فى يونان الذى كان سرعان ما يعدل عن لفظ آذى أحدا لا يعرفه، أو أحدا يعرفه، كما كان يسعى فى الخير بقدر ما يستطيع.

(٨)

عاش يونان لبيب رزق باسم الثغر، وباسم القلب أيضا.. كان هادئ القلب، وهادئ العقل أيضا.. كان عف اللفظ، وعف القلم أيضا.. كان يدافع عن نفسه لكنه كان يدافع عن الحقيقة أيضا.. كان يتألم للظلم إذا ما حاق بأحد يعرفه، وكان يطوى نفسه على آلامها.. كانت فرحته

بنوال جائزة مبارك فرحة طفل صغير، وقد فزت معه فى اليوم نفسه بجائزة الدولة التقديرية، وفاز معنا كثيرون بجوائز أخرى، لكنى لم أر أسعد منه بنواله الجائزة، حتى إنى كطبيب للقلب كنت أخشى على قلبه العليل من هذه الفرحة الزائدة.

كان يسعد لسعادة زملائه وأحبائه، ويجزع لجزعهم، ويحرص على شعورهم قدر ما يستطيع. كان يلح فى تكريم مَنْ يراه يستحق التكريم. كان متشبعا بالوحدة الوطنية إلى حد أنه كان يفوقنى فى انحيازه لأعلام المسلمين فى ندوات الجمعية الخيرية الإسلامية التى حرصت على تكريمه مرة بعد أخرى فيما اشتركنا فيه من تكريم رواد تلك الجمعية الراحلين.

(٩)

منذ شهور قليلة توفى الدكتور عبد العظيم رمضان، بينما كنت فى فراش المرض، فكتبت ما وفقنى الله إليه فى رثاء صديق عزيز، وجعلت مدخلى الحديث عن مكانته فى التاريخ، وتابعت الصحف فإذا أستاذنا أنيس منصور ـ كالعهد به ـ يطالعنا بعمود صحفى يوجز ما نعجز عنه فى وصف حياة كاملة فى عمود واحد، وإذا بالدكتور يونان، وبالروعة المفاجأة، لا يكتب مثلى عن مكانة عبد العظيم رمضان من التاريخ، أو من علم التاريخ، وإنما يكتب عن عبد العظيم رمضان ابن البلد، وعجب زملائى الأطباء من هذا المدخل، لكن عجبهم زال وتلاشى عندما أوضحت لهم أن يونان كان يود لو أصبح ابن بلد تماما، وكان لا يفتأ فى محاولته الوصول إلى هذا الجوهر رغم عمله مع الدبلوماسيين، وأستاذيته للجنس الآخر، واقتدائه بأستاذيه الأولين اللذين وصلا إلى مواقع بروتوكولية متقدمة، ولهذا فإنه عبر عن حبه لعبد العظيم رمضان على هذا النحو الصادق والواعى أيضا.

ولم يكن من قبيل الصدف أن يختم يونان لبيب رزق حياته العلمية بأن يترأس الاحتفال الذى أقامته لجنة التاريخ لتأبين عبد العظيم رمضان، وفى ذلك اليوم شعرت بأسف شديد أن فاتنى تكريم الراحل، وأن فاتنى الحضور مع الراحل الذى لحق به، ولم أكن أدرى أنه سيلحق بهذه السرعة به، وفاتنى قبل هذا وذاك أن يكون مجلسى إلى جانب أستاذى الصديق الصدوق جمال بدوى، الذى كنت أوثر أن أكون إلى يمينه فى مثل هذه الاحتفاليات؛ فقد كان القدر أسبق إليه من أن يشارك فى مثل هذا اليوم، وكل ما أملكه اليوم من رثاء هو أن أدعو الله أن يحسن ختامى، كما أحسن ختامهم.